إمانويل بوف

أصدقائي

ترجمة : عبد الوهاب الملوح

صفحة ٧

صفحة 7

الكتاب
أصدقائي

المؤلف
إمانويل بوف

الطبعة الأولى :2020

الترقيم الدولي
9786039143734

رقم الإيداع
1441/9115

Copyright © page-7.com
حقوق الترجمة العربية محفوظة
© صفحة سبعة للنشر والتوزيع

Email: info@page7.com
Website: www.page7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان : الجبيل ، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page7.com

العزلة، يا لها من شيء محزن وجميل! كم هي جميلة عندما نختارها! وكم هي حزينة عندما تُفرض علينا سنة بعد سنة! بعض الرجال الأقوياء لا يشعرون بالوحدة عندما يكونون بمفردهم، ولكن أنا ، الضعيف ، أشعر بالوحدة عندما لا يكون لي أصدقاء.

إمانويل بوف

مقدمة

جان كاسو

تعود بي طباعة أعمال **إمانويل بوف** نصف قرن إلى الوراء، لسنوات 25 حين أعقب المرح حربا اعتقد الكثيرون ، إنها آخر الحروب وهو ما أدى إلى إعادة ولادة الآداب والفنون في تفاعل خلاق. فبالخروج من نفق مظلم؛ انبثق تطلع شغوف بهذا الكرن الذي عمَّ فيه السلام، أصبح فيه بلدان جديدة عديدة يمكن زيارتها،و كتب، لوحات تشكيلية، موسيقى يمكن اكتشافها. وإستعادة الصلة بالابتكارات بدأت في الظهور قبل القوسين الفظيعين والتي أعلنت عن نفسها كشيء، ساحر فاتن وعجيب:

الأدب، خاصة عرف نجاحا لم يحالفه من قبل. لا شك أنه وقع التعبير عنه عن طريق الكتاب، الشعراء، المدارس، الحركات، وكل ثروة، ناهيك على أنه يعكس بقية الفنون.وازدهرت الجرائد، المجلات، السلاسل، هواية الكتب،كما انبعثت دور نشر أو وقع تجديدها، كان هنا ك شيء يحدث شبيها بما يمكن تسميته الحياة الأدبية. في هذا المناخ ،التقيت بإمانويل بوف. كنا من أولئك الذين هم «ما دون الثلاثين» نجتمع للعشاء معا في لافيلات. روبير إيميلبول وأخوه البير، مكتبة دو فوبورغ سانتأونوري والذي كان يحذق تلك الأساليب الكيِّسة، التي، تستوجبها، في مثل تلك الظروف، باريس القديمة.

كان الأخوان إيميلبول قبل الحرب من أهم الناشرين الذين نشروا لكبار الكتاب، وأرادا العودة للنشاط بما ينسجم مع الذوق الأدبي المعاصر، فكلّفا ايدموند جالو بالبحث عن كتاب شبان مغمورين وإنشاء سلسلة للروايات الجديدة. في هذه السلسلة نشرت أنا وبوف رواياتنا الأولى. ومن دون التخلي عن مكتبتهما في الفوبورغ، بعث الأخوان إميلبول دارا للنشر في سان جرمين دي بري، خلف الكنيسة، داخل ساحة رائقة، تشبه حديقة، تشبه في مجملها شاعرية هذا الحي الرائع الذي اندثر الآن كما لو إنه أسطورة عجيبة. كنا نلتقي في مكتب روبير، الرجل الأشد نبلا (والذي قدم أعمالا جليلة للمقاومة إبان الاحتلال) فكنا نلتذ بثرثرات ساحرة على أرصفة الماغو، فلور أو دي ليب، كان مثلثا رهيبا نلتقي فيه ب«فارغ» ، من ضمن آخرين مألوفين أقل من «فارغ» طبعا الذي كان يرى أن أفضل طريقة لكسب الحياة هي إضاعة الوقت. طبعا هذه أشياء بعيدة جدا وجيدة لكنها تحفز هواة ذكريات الزمن الضائع.

كان إدموند جالو يشاركنا في تطلع متحمس لهذا التنوع الأدبي الذي كان يجلب له صداقات جديدة شابة. وكان يُقدِّر جيدا الصداقة، كما بحب المجهول، الجديد، الآداب الأجنبية وذاك الوجود الغريب. كان يؤمن بوجود عالم داخلي، وبالواقع التخييلي، ويؤمن بإمكانية تخيل الواقع. وكنا نتبعه حيث يمضي إلى أبعد حدود تهيؤاته الثمينة، فلم يكن من الممكن إدراك ما يتميز به من لطافة، رقيقة ومرحة في نفس الوقت، تجاه الناس الإجتماعيين واللإجتماعيين، المهمشين، وكل أصناف اللقاءات، تلك التي تتسم بالعفوية وتلك الحالمة، والتي هي طبعا إنسانية وثقل بإنسانيتها، غير أنها لا تفيد الحياة العادية بأي شكل من الأشكال. وكان أوبلوموف من الشخصيات التي

تعجبه في العالم الأدبي، غير أنه وجدها حية من لحم ودم قدامه وقد عثر عليها في بوف، وفي شخصيات رواياته، ولعله من الصعب جدا، تحديد علاقة بوف بشخصياته. وليس مستبعدا أن يكون هو نفسه أحد شخصيات رواياته. إذ أن أصوله الروسية تؤكد هذه الفرضية، وكذلك طبعه المتكتم، عزلته وبلاهته الطيبة. لكنه كان مؤلف شخصياته، يعرفها، يقيمها وبالتالي يستطيع أن يحددها ويميزها عن غيرها وفيما بينها. وهو ما يمكن اكتشافه من خلال الابتسامة التي تتصفح وجهه الثقيل والهادئ، ابتسامة ماكرة، ذلك المكر العميق المطمئن. هو يعرف طبيعة شخصياته، وبهذه الابتسامة كان يراها تتسكع بخطاها المتثاقلة من غرفة نزل إلى غرفة أخرى، بدون أي مكان آخر لها في تسكعاتها، في لا حدودها وأن تتفكك منهارة بل وأقسى من ذلك أن ترضخ لسياط ضربات متتالية لكارثة لا قوة لها لتواجهها. إمانويل بوف،كاتب،

غير أنه أشد شراسة من هذه الكارثة. وسلطته هي سلطة الكاتب. وليس مهما أن كان هناك شيئ من اللاموضوعية والاعتراف في هذه السلطة. والذي صدم القارئ في كتابه الأول «**أصدقائي**» هو هذه النبرة الموضوعية المريحة التي اعتمدها الكاتب في سرد حكايته والتي هو مؤلفها. نبرة كاتب وكاتب كبير. فن بقدرة متفردة. فن لا يتراجع أمام ما قد يخلفه من مرارة وصدمة. هذه الصدمة ،وهذه المرارة سوف تتحولان إلى رعب، لأن كل تفاصيل هذا البؤس لن تثير الشفقة بل الرعب. أن لم تكن الشفقة في حد ذاتها إحساس مرعب. ولحسن الحظ؛ أنه وللتخفيف من هذه الابتسامة الماكرة هناك هذه السخرية الخفيفة الحزينة. ومن خلالها سوف يذهب هذا البؤس إلى الأبعد فيه وبالتالي يستجيب لهذا الرعب الذي هو حدٌّ آخر بعيد :عند الحد الذي

يمكن أن تتحمله مشاعرنا كقراء. فالكارثة محتمة. علما وأنها هنا ،منذ البداية، منذ أدق تفصيلة لهذا الرسم الواقعي الرهيب للبؤس. غير أن هذا البؤس ليس بؤس اجتماعي، اقتصادي. فهو أيضا،وخاصة، بؤس روحي، وهو ما يجعله في العمق؛ مرعبا. هذه العلاقة اللإرادية بالواقع، والاستمرار فيها كما لو أنها إنكار فاقد الصبر للحياة، كل هذا لم يعد محتملا.

أذكر أن **الشاعر ريلكه قرأ «أصدقائي»**، حين صدرت وأعجب بها، أذكر أنه كان يتحدث عنها بحب كبير. ولا استغرب ذلك. فمن المؤكد أنه وجد فيها أشياء عزيزة عليه، مذاق أزمنة ضيق روسيا، على طريقة تولستوي، يقين رهيب. واستحالة الافلات منه ،سذاجة الشقاء. فالشقاء في البلاد التي يحملنا إليها بوف ساذج، وهناك سذاجة في الطريقة التي يتم التعامل بها مع الشقاء. ولهذا جاء أسلوب بوف طبيعي، وكذلك كتابته، وطريقتها المباشرة.

بجمل قصيرة ،جافة، بسيطة، تكتفي بما تقوله. جمل فقيرة، أفقر من الفقر الذي تتحدث عنه. جمل تتحدث عن أشياء بطبيعتها فقيرة وأحداث كارثية: وهذا في حد ذاته أقوى من أن تتحدث عن الفقر. فمنذ الصفحات الأولى التي قرأتها أعجبتني هذه النبرة الطبيعية والتي تمثل قوة كتابة بوف، وقوة السرد. وفكرت أنه ليس هناك طريقة أفضل لقول الحقيقة غير هذا الأسلوب.

توفي بوف وهو شاب. وقد حدث هذا أيضا بشكل طبيعي وساذج ذلك لأن الحقيقة ودونما أدنى شك في ذلك حين قيلت بشكل بسيط وجيد، هي نفسها تشعر أنها لن تتكرر.

1

عادة ما يكون فمي مفتوحا حين أستيقظ من النوم . أسناني متسخة بالشحوم :كان من الأفضل لو قمت بتنظيفها البارحة قبل النوم، غير إنني لا أمتلك الشجاعة لذلك. هناك دموع تحجرت عند زوايا جفوني. تؤلمني كتفاي. يغطي شعري الناعم جبيني. أرمي به إلى الخلف بأصابعي المتباعدة. لا فائدة من ذلك :فهو يشبه صفحات كتاب جديد ترتفع وتقع على عينيَّ مجددا.

وأنا أخفض رأسي شعرت أن لحيتي قد نمت:إنها تحزُ عنقي.

بما أن رقبتي كانت دافئة، لبثت هكذا مستلقيا على ظهري، مفتوح العينين، احتمي بالأغطية ساحبا إياها الى حدود ذقني حتى لا يبرد الفراش.

لطخت الرطوبة السقف الذي كان واطئا جداً هناك هواء ينفذ من خلال ورق الحائط. أثاثي شبيه بذاك الذي يعرضه الباعة الجوالة على الأرصفة. قسطل مدفأتي الصغيرة مُضمّد بخرقة كما لو أنه ساق مبتورة . الستارة التي لم تعد تصلح لشيء تدلت من أعلى النافذة مائلة.

وأنا أستلقي أحسست قبالة بطن قدمي - شيئا ما مثل راقص الحبل - بالقضبان العمودية للسرير الحديدي.

كانت الثياب التي تضغط على ربلة ساقي مبسوطة، دافئة من جهة واحدة

فقط. لم تعد لخيوط أحذيتي أي أطراف.

تبرد غرفتي حالما تمطر في الخارج .كما لو أن لا أحد يقيم بها. يقضم الماء الذي يسيل على عرض المربعات الملاط ويُشكِّل بركة على الارضية.

ما أن تُشعّ الشمس حتى تنعكس أشعة ذهبية وسط الغرفة. وقتها، يسطر الذباب ألف خط مستقيم على أرضية المكان.

وهي تنقل الأثاث من مكان لآخر تدندن جارتي كل صباح بأغنية لا تصل كلماتها . يُخفت الجدار صوتها. أحس كما لو انني خلف فونوغراف.

عادة ما التقي بها عند الدُرج. هي بائعة لبن. تعود عند الساعة التاسعة صباحا للقيام بشؤون المنزل وقد لطخت قطرات من الحليب لِبْد خُفَيْها.

أحب المرأة التي تنتعل خُفين : لا تبدو ساقها قبيحة .

بالإمكان رؤية حلمتيها في الصيف وكِتْفِية القميص تحت الصدرية.

قلت لها إنني أحبها. ضحكت دونما شك لأن سحنتي سيئة ولأني فقير. هي تُفضِّل أولئك الذين يلبسون زيا عسكريا . رأوها مرة ، تضع يدها تحت الحزام الأبيض لحارس جمهوري.

هناك شيخ دائم السعال يعاني من مرض شديد يقيم في غرفة أخرى. يشد عكازته مطاط عند طرفها السفلي. لعظام كتفه حُدبتان عند الظهر. برز أحد شرايينه عند صدغه ما بين الجلد والعظم. لم تعد بُدلته تلامس وركه :كان يهتز مترجرجا كما لو إنه جيب فارغ. يتسلق هذا الرجل البائس الدرجات واحدة واحدة مستندا الى الدرابزين. حالما يقع بصري عليه أعبُّ ما أمكن من الهواء كي أتجاوزه دون ان آخذ نفسا.

تزوره ابنته يوم الأحد. هي امرأة أنيقة. بطانة معطفها تشبه ريش ببغاء.

وكم هو جميل ذلك المعطف الذي تلبسه إلى درجة تساءلت إن لم تكن تلبسه من قفاه. وبخصوص القبعة فهي ذات قيمة عالية بما إنها تستقل سيارة تاكسي حين تمطر السماء. تتنفس هذه السيدة عطرا، عطرا حقيقيا، ليس ذاك الذي يُباع في أنابيب زجاجية.

كل المستأجرين هنا يكرهونها. يقولون عوض أن تعيش هذه الحياة الباذخة، كان الأولى أن تُنقذ أباها من هذا البؤس.

تقيم عائلة لوكوان السطيحة.

يرن جرس المنبه عند أول الصباح.

الزوج لا يحبني. رغم اني طيب معه. يؤاخذني بسبب تأخري في القيام من النوم.

وهو يطوي زي عمله تحت ذراعيه، يعود كل مساء، عند السابعة، في فمه سيجارة انجليزية، ما يجعل الناس يقولون أن العمال يعيشون حياة باذخة.

هو ضخم وصاحب عضلات. يمكن بشيء من المديح الاعتماد على قوته. في السنة الفارطة، أنزلَ الصندوق الكبير لسيدة تقيم في الطابق الثالث ولكن بصعوبة لأن غطاءه لا ينغلق.

حين يوجه له أحدهم الكلام يتفحصه جيدا معتقدا إنه يتهكم منه،

ولأقل ابتسامة يقول :

هل تعلم... أربع سنوات من الحرب... أنا. لم ينل مني الألمان... فليس اليوم ستنال مني أنت...

ذات يوم وهو يمر حذوي غمغم "متكاسل" شحبت ولم أعرف ماذا أرد. الخوف من أن يكون لي عدو يمنع عني النوم لمدة أسبوع. اعتقدت أنه يريد أن يضربني، ويرغب في ذلك الى حد الموت.

رغم ذلك ،ليت السيد لوكوان يعلم كم أحب العمال، كم تثير حياتهم شفقتي. لو يعرف كم تكلفني استقلاليتي الصغيرة من حرمان.

لديه بنتان فقط ،يضربهما بيده لتربيتهما. لديهما أوتار بارزة أسفل سيقانهما. قبعة كل واحدة منهما مشدودة بسلك مطاطي.

أحب الأطفال ،وحين التقي بهاتين الفتاتين أخاطبهما. تتراجع خطاهما ،ثم فجأة دونما أن تجيباني، تفران.

كل ثلاثاء، تقوم السيدة لوكوان بالغسيل على السطيحة.وتظل حنفية الماء مفتوحة كامل اليوم. فما أن تمتلئ الأباريق يتغير صوت تساقط الماء. تنورة السيدة لوكوان من الطراز العتيق. كعكعة شعرها ضئيلة جدا الى درجة يمكن تمييز كل مقابض الشعر.

عادة ما تثبت النظر فيَّ، لكنني احترز منها، لأنه من المتوقع جدا أن تنصب لي فخا. إضافة لذلك ليس لها نهدان.

ما أن أزيح عني أغطية الفراش، أجلس على حافة السرير. تتدلى ساقاي. مسام فخذاي سوداء. أظافر أصابع قدمي طويلة وحادة : أيُّ شخص غريب سيجد أظافري بشعة.

وأنا أغادر السرير ،أشعر بدوار في رأسي، غير أنه سرعان ما يزول. حين تشع الشمس في الغرفة، تتطاير سحابة غبار من الفراش، تلتمع لبعض اللحظات في الأشعة كما لو أنها مطر.

أضع جواربي أولا وإلا سوف تلتصق ببطن قدمي عيدان ثقاب. مستندا إلى كرسي ألبس البنطلون.

قبل أن ألبس حذائي، أتثبت في نعليهما لأحدد صلوحيتهما.

بعد ذلك أضع على حوض الحنفية الطست ممتلئا بماء البارح الوسخ. لديَّ

هوس دائم من الاغتسال منحنيا متباعد الساقين.

وبهذا الشكل كنت استعمل طنجرة الحساء للاغتسال حين كنت في الجيش.

الطست الذي استعمله هنا صغير جدا لدرجة أن الماء يفيض منه حين أضع فيه يديَّ. قطعة الصابون ذابت ولا رغوة لها.

نفس المنديل استعمله للوجه ولليدين. وحتى لو أصبحت غنيا لن يتغير الأمر.

حالما اغتسل،أشعر إني أفضل. أتنفس بمنخريَّ. أسناني الآن جلية. ستظل يداي نظيفتين إلى حدود منتصف النهار.

أضع قبعتي. حوافها منتفخة بفعل المطر. عقدة الشريط القماشي الملتصق بها مسايرة للموضة :توجد عند الخلف.

أشد مرآتي إلى النافذة. أحب أن أراني قبالة الضوء. أجدني أفضل. وجنتاي ،أنفي ،ذقني كل هذا مُضاء. البقية ظل أسود. كما لو أنني التقط صورة في الشمس.

لا يجب أن أتباعد عن المرآة، لأنها من النوع الرديء. تحرِّف صورتي على مسافة منها.

أتثبت جيدا في منخريَّ، زوايا عينيَّ، أضراسي ونواجذي التي نال منها التسوُّس. لم تسقط:تتكسَّر. أفاجئ بروفايلي بمساعدة مرآة أخرى. أحس إنني متعدد. يعرف ممثلوا السينما هذه البهجة.

ثم أفتح نافذتي. يهتز الباب. يرتجُّ رسم 19141918 على الجدار. يصلني صوت نفض سجادات. أرى سقوفا من الزنك الأزرق ، مداخن، ضبابة تتحرك حين يشقها شعاع الشمس، وبرج ايفل بمصعده في الوسط.

ألقي نظرة أخيرة داخل غرفتي. لقد برد فراشي، يطل بعض الريش من خلال اللحاف. هناك ثقب في القضبان، في سيقان الكرسي أيضا. عوارض الطاولة المستديرة تتدلى.

هذا الأثاث ملكي. أهداه لي صديق قبل أن يموت. قمت بتطهيره بنفسي بواسطة الكبريت، لأني أخشى الأمراض المعدية ورغم ذلك بقي صالحا لمدة طويلة. أريد أن أعيش..

بصعوبة بالغة ،أضع معطفي ذلك أن بطانة الأكمام متفتقة.

أدس سجلِّي العسكري ،مفتاحي، منديلي المتسخ الذي يقرقع حين أبسطه في جيبي الأيسر.

لدي كتف أعلى من الأخرى،من شأن ثقل هذه الأشياء أن يخفضها.

الباب لا ينفتح تماما. لكي أخرج لا بد أن أتزرر جيدا وأمرق مواربة.

مربعات السطيحة متأكلة. نصل حديدي ذو ثلاثة ثقب يشد كوة الباب. تنتهي الدرابزين عند الحائط دونما كرة زجاجية.

أنزل الدرج من جهة الحائط، حيث تكون الدرجات أوسع . كي لا تتسخ يداي أتجنب مس الدرابزين. حافظات مفاتيح تتأرجح من مزاليج الأبواب.

كنت خفيفا مثل أول يوم خروج دون معطف . مازال ماء طستي يبلل رموشي وداخل أذني.

ألوم أولئك الذين مازالوا يغطون في النوم.

دائما ما تقع عيناي على عاملة الباب. تعلق الممسحات على الدرابزين لتكنس السطيحة، أو، هي تحك الرواق. أقول لها صباح الخير. بالكاد ترد وهي تتفحص حذائي.

بعد الثامنة تريد أن تكون وحدها في هذا المكان .

2

أُقيم في مونت روج.

مازالت المباني الحديثة العهد في هذا الشارع ترسل رائحة الحجارة المصقولة .

أما المبنى الذي أقيم فيه فليس حديثا. جصُّ جدرانه يتساقط قطعا، قطعا . الشبابيك تشقها قضبان داعمة. لاشيء يغطي سقف الطابق العلوي الأخير.

خطاف يشد المصراع إلى الحائط حين لا تكون هناك ريح.

لا أثر لاسم المهندس على هذا المبنى.

عند الصباح ،يكون النهج هادئا. وحدها عاملة المبنى تكنس أمام باب شقتها فقط.

حين أمر حذوها أتنفس بأنفي بسبب الغبار.

من خلال النوافذ المنفرجة قليلا أرى الطوابق الارضية. أرى نباتات خضراء مسقية أغلفة قذائف براقة والواح أرضية، ضيقة ومشمعة، متعرجة.

أتحرّج حين تتقابل نظراتي بنظرات أحد المستأجرين.

تتمايل أحيانا ملابس بيضاء من خلف ستارة على مستوى شخص ما:هناك من يستحمُّ.

أتناول قهوتي قريبا من حيث أسكن بمقهى صغير. زنك المقصف متموج عند حوافه. بالإمكان تكهن عمر خشب اللوح المغسول بالماء الصافي. فونوغراف من زمن الحرب مهمل إلى جهة الجدار في أحد الأركان. ما الذي يفعله هنا طالما لم يعد صالحا للاستعمال.

صاحب المقهى الصغير طيب . قصير مثل جندي في آخر الصف. له عين زجاجية تشبه كثيرا العين الحقيقية، ولم يتسن لي أن أعرف أيهما الأفضل وهو ما يزعجني. يتراءى لي إنه ينزعج حين أحدق في عينه المزيفة.

حدثني أنه جريح حرب، رغم إن الجميع يؤكدون إنه أعور قبل 1914 . دائم التشكي والتذمر. فالمبادلات التجارية متوقفة. يُجلي الكؤوس والفناجين بشكل جيد أمام الحرفاء، يعرف كيف يقول: «شكرا سيدي؛ إلى اللقاء سيدي؛ دع الباب مفتوحا» لا أحد يأتي.

يريد نسيان الحرب. يستعيد سنة 1910 بأسف شديد.

إذ يبدو إن الناس في ذلك الوقت كانوا نبلاء، اجتماعيين. كان للحشد الأهمية . وكان بالإمكان الاقتراض. وكان هناك اهتمام بالمشاكل الاجتماعية.

حين يتحدث عن كل هذا تغرورق عيناها بما في ذلك العين الزجاجية بالدموع وينعقد حاجباه في شكل خصلتين صغيرتين.

اختفى ماقبل الحرب بسرعة إلى درجة أصبح يشك إنه مجرد ذكرى.

نحن أيضا ،نتطارح المشاكل الاجتماعية. ويصر على ذلك. و الدليل هو نفسه، فالحرب لم تغير فيه شيئا.

كل يوم يؤكد لي، إن ألمانيا البلد الأقل تنظيما من بلدنا لا يوجد بها متسولون. يجب على الوزراء الفرنسيين منع التسول.

ولكنها ممنوعة !

لا تقل هذا! وكل هؤلاء الحرافيش الذين يبيعون أربطة أحذية، إنهم أشد ثراء مني ومنك.

ولأنني لا أحب الشجار، ألوذ بالصمت. ابتلع قهوتي التي جعلتها قطرةُ حليب بنية اللون، أدفع الحساب وأغادر.

إلى الغد ! يهتف صائحا وهو يضع فنجاني التي مازالت ساخنة تحت خيط ماء متدفق لن يتوقف الا عند الدهليز السفلي.

بعيد من هناك يوجد محل بقالة.

يعرفني صاحبه . بدين الى درجة أن مئزره من أمام أقل قصرا من الخلف. بالإمكان مشاهدة جلده خلف شعر رأسه الخفيف. شارباه على الطريقة الامريكية يسدان منخريه ومن المؤكد يمنعانه من التنفس.

أمام محله عرض مختصر للوقاية يتكون من البقوليات، خوخاً قناني من الحلوى. كي يخدم الحرفاء ،يخرج، لكن يزن في الداخل.

في ما مضى كنا نثرثر حينما يكون واقفا عند الباب. يسألني إن كنت عثرت على شيء ما، أو يشير لي إن سحنتي جيدة. ثم يعود إلى داخل متجره وهو يلوّح بيده علامة "مرة أخرى".

ذات يوم ، طلب مني أن أساعده على نقل أحد الصناديق. كان بإمكاني الموافقة دون تردد، غير أنني كنت أخشى الفتق.

رفضت مغمغما:

لست قويا ، ثم أنا جريح حرب.

منذ تلك الحادثة ما عاد يتكلم معي .

هناك أيضا جزار بالنهج الذي أقطن فيه.

قطع من اللحم تتدلى من مخاطيف مشدودة إلى كلابات فضية الطاولة في الوسط متآكلة كما لو أنها درج. شرائح لحم بقري مدماة على ورق أصفر. تلتصق النشارة بأقدام الزبائن. المكاييل المصقولة مصففة من الأصغر إلى الأكبر. كانت هناك سياج حديدي كما لو هناك خشية من إفلات اللحم.

عند المساء أرى عبر هذا السياج المدهون بالأحمر، نباتات خضراء على المرمر العاري للواجهة.

صاحب هذا المحل لم يعد يكلمني هو أيضا :فلم اشتر الا بعض بقايا اللحم بالقليل من الملاليم لقطٍّ أجرب.

تحظى المخبزة بعناية كبيرة من صاحبها. إذ تقوم كل صباح فتاة بتنظيف الواجهة. سواقي ماء تنساب مع منحدر الرصيف.

من خلال الفترينات يُمكن رؤية كامل المحل من الداخل بمراياه المتعددة وأثاثه الخشبي لويس 15 ومرطباته المنضدة على صحون حديدية.

رغم أن مرتادي هذه المخبزة هم من الناس الاثرياء، فأنا أحد حرفائها ثمن الخبز هو نفسه في كل مكان.

عادة، ما أتوقف أمام محل خردوات أين يتزود الصبية بفتائل.

هناك طاولة في الخارج صُففت فوقها صحف مطوية لا يمكن قراءة إلا نصف عناوينها. كانت لكسلسيور وحدها تتدلى كمفرش مائدة.

أشاهد صورا. تعرض الكليشيهات الضخمة نفس الشيء المعتاد:

حلبة، مسدس بأغلفة رصاصاته.

تقف صاحبة المحل بالخارج حالما تلمحني قادما. تتبعها رائحة لعب مصبوغة وقطن جديد.

هي عجوز نحيلة. نظاراتها أشبه بعدسات مكبرة. تحسر كعكة شعرها المتيبسة بشبكة مربية رضع. شفتاها محشورتان داخل فمها لا تخرجان أبدا. يقولب مئزرها الأسود بطنا في غير موضعه. لتبديل خمس فرنكات تختفي خلف المحل.

أسألها عن حالها.

تميل برأسها فقط، فليس من اللائق ألا ترد. أفهم من الباب المفتوح خلفي أنها تنتظر رحيلي.

التقطت صحيفة ذات يوم لقراءة الكلمات الصغيرة. قالت لي بلهجة سيئة: ثمنها ثلاثة فلاليس.

رغبت أن أعلمها أنني جندي كنت في الحرب، ولقد أصبت هناك إصابة بليغة وأتقاضى منحة بسيطة، غير إنني أدركت أنه لا فائدة من ذلك.

وأنا أترك المكان ،سمعتها تصفع الباب خلفي بقوة.

مضطر للمرور أمام محل اللبان حيث تشتغل جارتي وهو ما يزعجني. فمن المؤكد إن هذه الأخيرة أذاعت اعترافي بحبي لها. فالجميع حتما يسخر مني.

لذلك أسارع في خطواتي، متبينا بطرف البصر كتل الزبدة مقلمة بخيط، رسوم مشاهد طبيعية على أغلفة الكاموميار وشبكة تحيط بالبيض، حماية لها من السراق.

3

حين أرغب في الرفاهية، أذهب للتفسح جهة المادلين. حي الأثرياء. تتنفس الأنهج رائحة الرصيف الخشبي وأنبوب التصريف.تصفع وجهي ويدي الدوامة التي تخلفها الحافلات والتاكسيات . تبدو لي الأصوات التي تصلني وأنا أمر من أمام المقاهي كما لو أنها صادرة عن مكبر صوت لا ينفك يشتغل. أتأمل السيارات المتوقفة. تعطِّر النسوة الطريق من خلفهن. لا أشق الطريق إلا إذا أوقف عون المرور حركة سير السيارات.

أتصور، إن الناس حول طاولاتهم على الرصيف انتبهوا لمروري رغم ملابسي الرثة.

نظرت إليَّ إحدى السيدات الجالسة أمام إبريق شاي صغير في إحدى المرات بازدراء.

سعيدا ،ممتلئا بالأمل أعود أدراجي. غير إن الجالسين هناك ضحكوا ولاحقني النادل ببصره.

لزمن طويل ظللت أستعيد هذه الذكرى وهذه السيدة، رقبتها، نهديها. لا شك أنني أعجبتها.

حين يأتيني صوت دقات منتصف الليل، وأنا في فراشي، كنت متأكدا إنها تفكر فيَّ.

آه! كم أريد أن أكون غنيا!

يثير طوق فرو معطفي الإعجاب في الضواحي. ستكون بدلتي غير مزررة. تبرز من خلالها سترتي سلسلة ذهبية؛ وسلسلة فضية أخرى تشد كيس أموالي لحمالة البنطلون. ستكون حافظة نقودي في جيب سترتي الداخلية،كما يفعل الأمريكيون.

ساعة يدوية تلزمني بالقيام بحركة لائقة لمعرفة الوقت.

أضع يدي في جيب بدلتي ، الإبهام بالخارج وليس، كما، يفعل الأغنياء الجدد يضعونه على أكمام السترة.

سيكون عندي، حبيبة، ممثلة.

سوف نذهب معا لتناول مقبّلات على رصيف أكبر مقهى بباريس، ولإثارة انتباه الآخرين نحونا، يسارع النادل بخدمتنا وهو يمر بين الطاولات الصغيرة يصطدم بها ويثير ضجة. سوف تطفو قطع ثلج على كؤوسنا. لن ينفرش قصبُ كراسينا.

سنتناول العشاء في مطعم حيث المفارش الزاهية للمناضد و أعناق الورود متمايلة.

سوف تدخل هي الأولى. وستكعس مرايا صافية قامتي مئة مرة، مثل صف مصابيح الغاز. حين ينحني رئيس النزل لتحيتنا تنتفخ صدريته من الكرش إلى الرقبة. يتراجع عازف الكمان مندفعا نحو منصة وهو يتأرجح، وتهتزُّ ذبالات على عينيه، كما لو انه خارج للتو من حمام.

في المسرح ستكون هناك مقصورة مخصصة لنا. يكفي أن انحني قليلا لألامس الستارة. سوف تشرئب الأعناق لرؤيتنا بمناظير الأوبرا.

بغتة ،تنير مصابيح الدرابزين خلف عاكسات الضوء الزنكية الركح.

سوف نشاهد بروفيلات الديكور، ونشاهد الممثلين في الكواليس لا يتحركون.

يلقي نحونا مغن مشهور وهو بأزراره من الكهرمان الأسود نظرة إثر كل مشهد.

ثم تشرع راقصة في أداء دورها على أطراف الأصابع.أضواء الكشافات حمراء ،صفراء، خضراء تتابعها تترقق بشكل سيئ كما الألوان في لوحة ابينال.

عند الصباح نقصد الغاب في تاكسي.

مرفقا السائق ترتجفان. من خلال زجاج النوافذ المهتزة نرصد الناس متوقفين، آخرين متمهلين في مشيهم.

وحينما تنعطف السيارة نتمايل في مكاننا منزعجيْن.

ما أن نصل ،انزل الأول، خافضا رأسي، ثم أمد يدي لرفيقتي.

بدون أن أتطلع للعداد، أنقد السائق. أترك باب السيارة مفتوحا.

يحدق فينا المارة، سوف أتصرف كما لو أنهم لم يروننا.

سوف استقبل صديقتي في شقة صغيرة بالطابق السفلي من منزل حديث البناية.

عوارض مسطحة من الحديد تحمي مرآة باب الدخول. زر الجرس براق وسط صحن برونزي. منذ العتبة سوف يبين عند أخر الممر اللوح الأحمر للمصعد.

استحم عند الصباح. ملابسي برائحة حديثة الكي. لن أفكك زرين من سترتي بما يخلف انطباعا أنني قليل الحياء.

عند الثالثة تلتحق بي صديقتي.

انزع عنها قبعتها. نجلس على الصوفا. أقبل لها يديها ،مرفقها، كتفيها.

ثم نفعل الحب.

جذلى تتهاوى حبيبتي. تبيضُّ عيناها. أفتح لها صدريتها. ستكون قد لبست لي قميصا بالدانتيل.

بعد ذلك ، سوف تمنحني نفسها وهي تغمغم بكلمات حب وتبلل عنقي بقبلاتها.

لوسي دونوا

عادة ما أتناول الحساء الشعبي بالدائرة الخامسة. وهو ما لا يعجبني للأسف لأن المكان مزدحم بالناس ويعج بالفقراء والمتسكعين . يتوجب الحضور في الوقت المُحدَّد. ومهما كان الوقت أو الساعة فنحن نصطف ضمن طابور طويل، جنب الحائط، على الرصيف. يتصفح المارة وجوهنا،كان ذلك أمرا مشينا.

أفضِّل القليل من خمر نهج السين، حيث يعرفونني. صاحبة المكان تُدعى لوسي دونوا لقبها مُلصق بالأحرف الكبيرة مطلي ومزخرف على زجاج الواجهة. هناك ثلاثة أحرف ناقصة.

لوسي لها بدانة شخص لا يتوقف عنةاحتساء البيرة. خاتم المنيوم يُزيِّن سبابتها اليسرى ذكرى زوجها المتوفى في الجبهة . أذناها رخوتان. لا كعب لحذائها. دائما ما تزيح خصلات شعرها المنفلتة من كعكته بأنفاسها. تنشق تنورتها إلى الخلف حين تنحني كما لو أنه حيوان شارد. حدقتا عينيها ليستا في وسطهما: هما على ارتفاع عال جدا، كما هو الشأن عند مدمني الكحول.

يعم المكان رائحة برميل فارغ، فئران، غسالة قذرة.

أعلى مدرج الغاز مروحة من الحرير الصخري لا تشتغل. خلال الليل يصل ضوء إبزيم الغاز إلى ما تحت الطاولات. تم تلصيق معلقة على الحائط قانون تقييد السكر . تجاوزت بعض الصفحات الجزء المطبوع من الدليل. مرآة ملطخة ، مخدشة من قفاها تزين جانبا من الجدار.

أتناول الغداء عند الواحدة بعد الزوال:هكذا ستكون الظهيرة أقل وقتا.

بناءان في بلوزة بيضاء، تلطخ وجهاهما بالجبس، يترشفان قهوة سوداء.

استقل أبعد مكان ممكن عن المدخل في إحدى الزوايا:أكره الجلوس حذو الأبواب . على الطاولة بقايا طعام عمال كانوا قد سبقوني إلى المكان.

مغلف جبن وقشور بيض مبعثرة على الطاولة.

كانت لوسي طيبة معي. تقدم لي حساء ساخنا، خبزا طازجا، صحن خضروات، أحيانا قطعة لحم.

أُنهي الأكل. تتجمد الدهون على شفتي.

أعطي لوسي 100 فرنك كل ثلاثة أشهر حين أقبض منحتي. هي لا تجني الكثير مني.

انتظر كل مساء، أن يغادر آخر الحرفاء، فأنا الذي يغلق هذا المطعم القذر. على أمل أن تستبقيني لوسي.

مرة ،قالت لي ابق.

بعد أن أنزلت الستارة الحديدية بقصبة طويلة، عدت إلى الداخل على أربع. أن أجدني في محل عمومي مغلق ترك بداخلي شعورا غريبا. أحسست أنني لست في بيتي.

غير أن بهجتي شتتت هذا الاحساس.

أرمق تلك التي ستصبح حبيبتي بنظرات غرامية فيها الكثير من الدلع. لم تكن محط اهتمام وإعجاب الرجال، لكنها في النهاية امرأة، بنهدين كبيرين وورك أوسع من وركي. وهي تحبني بما انها طلبت مني أن لا أغادر.

فتحت لوسي قارورة مغبرة، غسلت يديها بالصابون المعدني، وجلست قبالتي.

مازال الشحم يلمتع على خاتمها وحول أظافرها.

كنت أصغي السمع لضجيج النهج رغما عني.

كنا منزعجين، لأن الهدف الواضح من حضوري يستبق حميميتنا.

لنشرب قالت وهي تمسح عنق الزجاجة بمئزرها.

بقينا نثرثر لما يقارب الساعة.

كنت سأقبلها لو لم يكن الأمر يتطلب مغادرة مكاني والتنقل إليها في الجهة الأخرى من الطاولة.

فجأة سألتني أن كنت أعرف غرفتها.

أجبت :

طبعا ،لا.

وقفنا. غزت مرفقي رعشة مفاجئة .

أشعلت شمعة قبل سحب سلسلة مدرج الغاز. سرعان ما تجمدت قطرات الشمع النازلة على أصابعها. تبعدهما بأحد أظافرها. شاع لهب الشمعة في المطبخ.

تسلقنا الدرج الصلب كما لو أنها سُلَّم حديدي والمؤدية الى الغرفة.

كنت أتبعها غريزيا خالي الذهن.

أنزلت الشمعة لإضاءة ثقب المزلاج، ثم فتحت الباب.

من المؤكد أن نوافذ الغرفة ظلت مغلقة طيلة اليوم. تدلت عُدّة السرير من سند الكرسي. خطوط الحشية الحمراء كانت جلية.

الدولاب شبه مفتوح. قدرت إن مدخرات لوسي توجد هناك بين طيات اللابس. كنت أوجه بصري نحو جهة أخرى.

أطلعتني على الصور الفوتوغرافية الكبيرة التي تزدان بها الجدران، ثم جلست على حافة السرير. التحقت بها.

كيف وجدت غرفتي؟

جيدة جدا.

بغتة ،وكما لو أني أخشى عليها من السقوط احتضنتها بقوة. لم تمانع. اندفعت أقبلها من كل مكان واخلع عنها ملابسها وقد شجعني سكوتها. أردت أن أفك أزرارها، أمزق ملابسها الداخلية كما يفعل عادة العشاق الكبار لكن خشية أن تقول أي شيء توقفت.

هاهي الآن في صدريتها فقط. حواشيها متآكلة خيط يشد ظهرها. نهداها تتلامسان.

كنت أفكك هذه الصدرية مرتجفا.غير إن القميص كان ملتصقا بجسدها.

شرعت في نزعه بصعوبة، لأن عنقه الضيق لا يمر من خلال الكتفين خلعت عنها كل ثيابها إلا الجوربين لقد بدا لي ذلك أكثر جاذبية. حتى أن

صور النساء العاريات في المجلات يبقين على جواربهن.

هاهي ،أخيرا ،عارية.

فاض فخذاها من خلال ربطتي الساق. عمودها الفقري يبعج جلدها في الكليتين. آثار تلقيح على ذراعها.

فقدت رأسي. ارتجافات شبيهة بتلك التي ترج سيقان الخيل تشتد بي.

أيقظتني غدا صباحا عند حوالي الساعة الخامسة. لم أجرؤ على النظر إليها، لأني عادة ما أكون عند الفجر قبيحا.

اسرع ،فيكتور، يجب أن أنزل.

ولأنني نصف نائم. أدركت بسرعة إنها لا تريد أن تتركني وحدي في غرفتها، لم تكن تثق فيَّ.

سارعت بوضع ملابسي و، دونما أن اغتسل تبعتها أنزل معها الدرج.

أغلقت الباب بالمفتاح.

اذهب وارفع ستارة الحديد.

نفذت ما طلبته مني، ثم جلست، منتظرا أن تمنحني فنجان قهوة.

بإمكانك الانصراف الان، سوف يأتي الحرفاء.

ربما أنها اصبحت الآن حبيبتي غادرت دون أن أطلب أي شيء.

ومن وقتها، حين أذهب لتناول الطعام. تخدمني كالعادة ،لا أكثر ولا أقلَّ.

هنري بيبار

1

كم ترهقني الوحدة. أحب أن يكون عندي صديق، صديق حقيقي، أو حبيبة أبثها آلامي.

حين أتسكع كامل اليوم، في صمت، عند المساء في غرفتي أشعر إنني مجهد.

سأقتسم كل ما أملكه: مال منحتي ، سريري من أجل عاطفة قليلة.

سأكون ناعما جدا مع الشخص الذي يمنحني صداقته بكل ثقة. لن أعارضه إطلاقا. ستكون كل رغباته هي نفس رغباتي. سوف أتبعه حيث يمضي مثل كلب. ليس عليه إلا أن يقول طرفة لانفجر ضاحكا؛ وسوف أبكي حين أراه حزينا.

رغم أن طيبتي بلا حدود. فالناس الذين عرفتهم لم يتقبلوها .

وبيبار لا يختلف عن الآخرين.

عرفت هنري بيبار خلال تجمع أمام صيدلية.

تثير التجمعات البشرية في الشارع رعبا شديدا بداخلي. والسبب في ذلك هو خوفي من وجودي أمام جثة. لكن في الأثناء هناك حاجة لا علاقة

لها بالتطفل تتحكم في خطواتي. إذ أجدني رغما عني، مغلق العينين، أفتح لي ممرا بين الحشود. ودونما أن تفلت عني أي إشارة نحو جموع المتسكعين المحتشدين :أسعى لمعرفة ما يحدث دون مشاهدة ذلك.

ذات مساء، وعند حدود السادسة. وجدتني وسط غوغاء، بمحاذاة العون الذي وقف يتابع التجمع من بعيد، تبينت علامة مدينة باريس محفورة على الأزرار الفضية لبزته . وكما في كل مكان هناك تجمع، كانت الناس تتدافع، وتدفع من الخلف.

داخل الصيدلية، لمحت شخصا، فاقدا للوعي، مفتوح العينين.

قصير القامة إلى درجة أن رقبته تستند إلى ظهر الكرسي وساقيه تتدليان مثل جوربين على حبل غسيل، أطراف أصابعه بالكاد تلامس الأرض. تدور حدقتاه من حين لآخر في عينيه. بقع كثيرة لطخت سرواله. رإبرة تشد سترته.

بدا لي سلوك الصيدلي معه غير طبيعي، يبالغ فيملاطفته، فالاهتمام النادر الذي قد يوليه أحيانا هؤلاء المتطفلبن بثياب البائس والانشغال الذي أبداه هذا الصيدلي بهذا الرجل الشقي ، كل هذا بدا لي غير عادي.

غمغمت امرأة تضع شالا ثقيلا على كتفيها وهي تجول ببصرها في المكان:

إنها حالة ضعف.

لا تدفعوا... لا تدفعوا.. هتف شيخ ناصحا.

نبهت صاحبة متجر من أمام محلها صائحة :

الكل هنا في الحي يعرفونه. إنه قزم. الأشقياء الحقيقيون ذوو أنفة، لا يتظاهرون بالبؤس. أما هذا فغير مهتم : إنه لا يتوقف عن تناول الكحول.

تدخل وقتها جاري الذي لم انتبه له من قبل وردَّ:

- وإن كان يشرب، فله أسبابه.

أعجبني رده ، غير أنني وإن ساندته، فذلك من أجل لفت انتباهه نحوي لا أكثر ولا أقل.

هذي نتيجة المبالغة في الأمر، قال أحدهم وهو يمسك بزوج من القفازات في يده المسطحة.

طالما لم تكنس الثورة المجتمع الحديث سيظل هؤلاء البائسين يتكاثرون. همس شيخ عجوز بصوت منخفض وهو نفس الشخص الذي كان ينصح بعدم التدافع.

تلفَّت العون الذي جعلته عباءته يبدو غامضا بما انها تغطي ذراعيه، وتبادل المتسكعون النظر فيما بينهم بما يعني أنهم لا يتفقون مع وجهة نظر هذا العجوز المثالية.

- سينتهون كلهم بهذا الشكل، غمغمت إحدى الخادمات وقد انفصل طقم أسنانها عن لثة فمها.

وافقها شخص آخر وهو يحرك رأسه، ويقلد حركات القزم.

لمَ لا يتم نقله إلى المستشفى؟ سألت العون.

كان عليَّ أن استرشد من أحد جيراني. غير أنني فضلت أن أسأل رقيب المدينة. بدا لي بهذا الشكل، إن صرامة القانون تنطبق عليَّ أنا وحدي فقط.

أغلق القزم عينيه. كان يتنفس ببطنه. وفي كل لحظة كانت أكمام سترته وأربطة حذائه تهتز.سال خيط من اللعاب على ذقنه. يمكن من خلال قميصه المفتوح رؤية حلمته الصغيرة والناتئة كما لو أنها مبتلة

حتما كان هذا المسكين يحتضر.

غمزتُ جاري. كان يعقص شاربيه. زر ذهبي يقفل عنق قميصه.

نحيل ، انفعالي ، قصير القامة، بدا لي لطيفا، كبيرا، عاطفيا ومتراخ.

هبط الليل ،بدأت فوانيس غاز الاضاءة تلتمع لكن دون أن تضئ المكان. سماء بزرقة باردة. ظهرت رسومات جغرافية على القمر.

ابتعد جاري دون توديعي. اعتقدت لوهلة حسب موقفه المتردد انه يأمل أن التحق به.

ترددت لحظة ،كما سيفعل أي شخص في مكاني، ففي الحقيقة أنا لا أعرفه؛ من الممكن أن يكون محل تفتيش لدى دوائر الأمن.

ثم؛ ودون تفكير مشيت خلفه التحق به.

كانت المسافة بيننا قريبة جدا لدرجة لم أهيئ ماسأقوله له. لم تصدر أي كلمة من فمي. بينما هو ،هذا الغريب لم يبد عليه الارتياب مني.

كان يمشي بشكل غريب يضع كعبه على الأرض قبل النعل مثل زنجي. سيجارة على أذنه.

آخذت نفسي و التحقت به؛ فأعيش وحيدا، لا أعرف أحدا. ستكون الصداقة بالنسبة لي عزائي الوحيد.

لم يعد بالإمكان بعد الآن التراجع وتركه بما أننا نمشي جنبا إلى جنب في نفس الاتجاه.

ورغم ذلك رغبت. في الإفلات عند أحد المنعطفات. بعد ذلك حين أكون قد ابتعدت فليقل عني ما يشاء. غير أنني لم أفعل شيئا.

هل لديك سيجارة؟ سألني

لوحت بصري بشكل عفوي نحو أذنه، لكن، حتى لا أزعجه خفضت بسرعة عينيَّ.

كان الأجدر أن يدخن تلك السيجارة أولا. من الممكن أن يكون قد نسيها.

منحته سيجارة.

أشعلها دون أن يستفسر إن كنت أملك أخرى واستمر في مشيه. مازلت أتبعه ،منزعجا من لامبالاته بي أمام المارة. رغبت لو انه التفت نحو، سألني، بما يتيح لي فرصة أن اتخذ موقفا ما.

دعمت السيجارة التي وهبته له من علاقتنا. لم يعد ممكنا بعد الآن أن أتركه : بل كنت أفضِّل تحمل هذا الازعاح على سوء التصرف.

_ تعال سنحتسي كأسا، قال لي وهو، يقف أمام إحدى الحانات .

رفضت، ليس كياسة، لكنني كنت أخشى أن لا يدفع هو الحساب. لقد وقعت ذات مرة في مقلب مشابه. لا من أن أكون حذرا، خاصة مع الغرباء.

غير أنه ألحَّ.

كان لدي القليل من المال تحسبا لكل طارئ؛ دخلت.

كان صاحب المحل جالسا إلى أحد الطاولات كما لو أنه حريف عادي ، ما أن لمحنا ندخل حتى التحق بالمقصف.

مساء الخير، أيها السادة.

مساء الخير، جاكوب.

سقف المكان واطئ يشبه سقف عربة قطار. تبعثرت تذاكر سينما مخفضة حذو المصرف.

طلب رفيقي بوك.

وأنت، ماذا تطلب؟

نفس ما طلبته أنت.

تمنيت لو طلبت نبيذًا، غير أن تحفُّظي الغبي منعني.

قذف رفيقي جرعة من البيرة، ثم سألني وهو يزيل الرغوة عن شاربيه:

_ما اسمك؟

_ باطون فيكتور، أجبته مثلما أفعل في الجيش.

_ باطون؟

_ نعم.

_ أي اسم هذا! متخذا مظهر من يجلد حصانا.

تعودت على مثل هذه المزحة. لكنها أدهشتني من شخص بدا شديد الاتزان.

_ وأنت ما اسمك؟

_ هنري بيار.

كان بإمكاني أن أتفكه بدوري من اسمه متظاهرا بلعبة البيلياردو لكن مخافة أن أعكر مزاجه تراجعت.

جذب رفيقي حافظة نقود ونقد صاحب المحل.

وجدت صعوبة في إنهائي لبيرتي، فلم أكن أشعر بظمأ.

فجأة ، شعرت برغبة أن أمنح رفيقي شيئا ما. في النهاية، أنا لا أعرف بيار. لكن مجرد التفكير انني سأجد نفسي لوحدي في الشارع، أرعبتني.

طاردت أي فكرة من رأسي، وبصوت لم أسمعه إلا أنا، قلت :

_ لنشرب ما شئت.... يا سيدي.

عم صمت ثقيل. قلقا ،كنت انتظرردا، مرتاعا من نعم، مرتاعا من لا.

_ لماذا أجعلك تدفع مالا. انت فقير معدم.

غمغمت مصرا ،دون جدوى. خرج بيبار متباطئا ،صالبا ذراعيه، يعرج في خطاه ربما بسبب وقوفه الطويل. قلدته ،ومشيت خلفه أعرج الخطى دونما سبب.

_ إلى اللقاء، باتون.

لا احتمل أن افارق شخصا تواصلت معه، دون أن أعرف عنوانه أو الالتقاء به مجددا. حين يحدث لي ذلك، أعيش ساعات طويلة فيما يشبه الغثيان. تلاحقني فكرة الموت التي عادة ما أطاردها.

لا أعرف لماذا ذكّرني، هذا الرجل الذي سيذهب إلى الأبد، أنني سأموت وحدي.

نظرت في حزن عميق نحو بيبار.

_ إلى اللقاء ،إذا، باطون.

_ هل ستذهب؟

_نعم

_ هل من الممكن أن أراك هنا مرة أخرى هنا؟

_طبعا.

عدت إلى شقتي منشغلا بالتفكير. من المؤكد أن بيبار صاحب قلب طيب. لذلك رفض دعوتي له للشراب. ومن المؤكد انه يحبني ويفهمني.

نادرون جدا أولئك الذين يحبونني قليلا ويفهمونني.

2

وأنا أستيقظ غدا صباحا؛ كنت أفكر فيه. استعدت بالتفصيل مختلف فترات لقائنا. وجدت صعوبة في استعادة ملامح بيار. وتذكرت شخصا بشاربين ، شعر، أنف، لكن لم أتذكر تعابير الوجه.

يا لسعادتي لو أصبح صديقي! نخرج عند المساء، نتناول العشاء معا. يقرضني، حين لا تكون عندي نقود، طبعا سأفعل نفس الشيء معه. سوف أقدمه للوسي. ما أتعس الوجود حينما أكون وحيدا ولا أتحدث إلا إلى ناس لامبالين.

مر اليوم ثقيلا. رغم هدير المدينة من حولي، كنت أسمع دقات كل ساعة، مثلما يحدث في الليل حين ننام. كنت أعيش في الانتظار. عرق بارد يوهمني في كل لحظة ان هناك هواء يسري بين قميصي وجسمي.

بعد الظهيرة ؛كنت اتنزه في حديقة.

وبما أنني أعرف الأرقام الرومانية، تسليت بحساب أعمار التماثيل. وكنت أصاب بالإحباط في كل مرة:كل التماثيل لم يتجاوز عمرها المئة سنة. شوه الغبار حذائي الذي لمعته هذا الصباح. كانت أطواق الصبيان تدور حول نفسها ثم تقع. جلس الناس على المقاعد ظهرا إلى ظهر. عيناي فقط كانتا تستمتعان بالنظر. وفي دماغي كان هناك بيار فقط.

أخيرا؛حل المساء. عدت أمشي عبر الشوارع والأنهج التي عبرناها أنا

وبيار. كانت الصيدلية مقفرة.وهو ما أحدث عندي شعورا غريبا، لأنها ارتبطت في ذهني بالتجمعات.

لم يكن هناك أي سبب يمنعني من التسكع نواحي مقهى جاكوب، غير أنني كنت أدرك أنه لو التقيت بيار في نفس الوقت سيكون محض صدفة ولن يبدو أنني بصدد البحث عنه. سيفترض إنني أمر عادة من الحي الذي يقطنه عند الساعة السادسة.

لم يكن ذلك البار الصغير بعيدا. وهو يخفق ،يُشعرني قلبي بشكل نهدي الأيسر الصغير.. لم أتوقف عن مسح يديّ الرطبتين على الأكمام . فاحت رائحة عرق من خلال سترتي المفتوحة.

تخيلت أن صاحب المحل وراء مقصفه وبيار يشرب بيرته البوك مثل الأمس.

وضعت طرف أصابعي يدي على أحد مربعات بلور الباب حتى لا أفقد توازني، اطلعت من خلال الستارة الحمراء على الداخل.

لم يكن بيار هناك.

شعرت بالاستياء. تصورت أنه لو كان متعلقا بي لكان عاد على أمل أن نتحادث معا مجددا.

أرسلت بصري أتفحص الساعة الحائطية لمخبزة. الساعة السادسة. لا شئ ضاع:من المحتمل أن يكون بيار في عمله.

ابتعدت عن المكان بنية العودة إليه بعد عشرين دقيقة. من المؤكد سيكون هنا. سوف نثرثر معا ؛لديَّ الكثير مما سأقوله له. ظللت أتسكع في الشوارع. كانت الأشجار المحاطة من الأسفل بشباك حديدية، تشبه جنودا من

الرصاص واقفة. رأيت مسافرين في الترامواي المضاء. تاكسيات معتمة وصغيرة تقفز عبر الأرصفة. إشارات تنطفئ حينا وتضئ حينا آخر لم تعد تجلب الاهتمام.

توقفت لمدة نصف ساعة أمام فترينة أحد المحلات أنظر لأثمان أحذية،ربطات عنق، قبعات.

توقفت أيضا أمام مصاغات. اللافتات الصغيرة كانت موضوعة بالمقلوب. وكان من المستحيل معرفة أثمان الساعات والخواتم دونما الدخول إلى المصاغة.

والآن، لا بد أن بيبار ينتظرني، لأنه في قرارة نفسه كان متعلقا بي، وإلا ما كان يدعوني لتناول بيرة بوك معه على حسابه.

عدت على عجل إلى بار جاكوب مخافة أن يكون قد جاء وانصرف.

ابتهجت لأن الليل هبط، فصاحب المحل ورواده هناك لن يلحظونني.

سوف اطلع على البار من الخارج. وإذا لم يكن بيبار موجودا، لن ينتبه أحد ليأسي على وجهي.

بدت لي المئة مترا المتبقية والتي يتوجب علي قطعها بلا نهاية. ولوهلة كنت سأقوم بقفزة جمبازية، لكن مخافة أن أكون مسخرة تراجعت :لم يحدث لي أن ركضت يوما في الشارع. ثم؛ أنا أركض أسوأ من امرأة.

ها أنا، أخيرا قدام البار. تطلعت إلى الداخل بعد أن أشعلت سيجارة.

لم يكن بيبار موجودا.

أصابني جزع جعل من الأشياء حولي تتخذ أحجاما كبيرة فتضاعف في نظري حجم أي مار، أي منزل، أي سيارة.

أتفهم لمَ سوف يضحك الناس من انفعالي. فما حدث لن يصيب أحد غيري. كل ما في الأمر؛ إنني شديد الحساسية.

ابتعدت إثر ذلك مهزوما تماما. عوض أن أتدارك أمري، كنت أسعى لإطالة حزني. انغلقت على نفسي،متصاغرا، أشد بؤسا مما كنت. كنت أجد عزائي بهذا الشكل.

لم يأت بيار.

لقد كان الأمر هكذا دائما معي. لا أحد تجاوب مع حبي. لم أكن أطلب سوى أن أُحَبَّ، أن يكون لي أصدقاء ورغم ذلك أظل دائما وحيدا. في البدء؛ يشفقون عليّ، ثم يهربون مني. لم يكن الحظ يوما إلى جانبي.

ابتلعت ريقي كي لا أبكي.

كنت أمشي قدامي سيجارة جافة بين شفتي، فجأة لمحت شخصا واقفا تحت عمود إنارة. اعتقدت في البدء ،انه متسول، فمثل هؤلاء عادة ما يتوقفون طويلا.

بغتة ؛صدرت عني شهقات قصيرة متتالية.

فذلك الشخص كان بيار. يلبس معطفا مجعدا كما لو أنه غريق. كان يبرم سيجارة، عند الضوء الشاحب لمصباح الشارع.

_ مرحبا، السيد بيار.

التفت نحوي، ولم يعرفني، وهو ما جعلني مرتبكا. غير أنني تفهمت نقص ذاكرته. كان الليل كثيفا. الاستئناس بضوء المصباح أغشى عينيه فلم يعرفني.

_ أنني باطون.

كان يمرر طرف لسانه على ورق السيجارة.

وكي لا يلحظ أنني أدخن، أطفأت السيجارة على الحائط وألقيت بعقبها في جيبي.

_ أين تتناول طعامك؟ سألني.

_ أين أتناول طعامي؟

_نعم.

_ ليس لي مكان محدد.

_ تعال معي ،أعرف مطعما في المتناول.

تبعته. حين أمشي جوار شخص أدفع به دون أن أتقصد نحو الحائط : هكذا أراقب نفسي. وحالما يضيق الرصيف ،أنزل على المعبَّد.

وبما أنه كان يبرطم بصوت خفي، تصورت انه يحدثني: لا أريد أن يعتبرني لا مباليا له.

عثوري على بيبار قطع لي شهية الأكل. بالرغم من أني كنت شديد الهوس بالرغبة في أن أحدثه عني، عن جيراني، عن حياتي، لكن لم أتفوه بأي كلمة. شلني خجلي تماما . كان من الواضح جدا أني لم أكن شديد التعلق برفيقي.

هو أيضا له آلاف القصص ليرويها لي. غير أنه مثلي لم يجرؤ.

كان حساسا ،خلف مظاهر فظة.

نظرت إليه. ورق سيجارته منطفئ.

_ إذا، أنت متزوج؟

_ لا، لكن أعيش مع امرأة.

ساء مزاجي دفعة واحدة. عشرات الأفكار عبرت دماغي.

تذكرت غرفتي، لوسي، النهج الذي أقطن به. بدا أن المستقبل هو تتالي أياما روتينية. نعم ، أؤاخذ بيار لأن لديه زوجة. لن يكون بالإمكان أن تجمعنا صداقة صلبة بما أن هناك شخصا ثالثا سوف يزعزعها. كنت غيورا. ثم ؛ لماذا كان لزاما عليَّ أن أتبع هذا الغريب؟ لقد خاتلني. بسببه سوف يزداد ثقل العزلة عليَّ.

لن تمنعني ردود فعله من التعلق بأمل أخير. ربما كانت حبيبته بشعة المنظر! يجب أن تكون بشعة فعلا لأستعيد أنفاسي.

ـ هل هي جميلة؟ جاهدت بصعوبة من أجل طرح هذا السؤال بشكل مرح.

أجاب بتلك الوثوقية التي يمتلكها الناس الوقحون؛ إنها غاية في الجمال بل وأنها رغم سنواتها الثمانية عشر تمتلك نهدي امرأة مكتملة، مُكوِّرا يديه عند صدره.

استبدت بي الآن فكرة واحدة :الانصراف. فظلم القدر كان فعلا كبيرا. كان بيار مبقعا بثؤلول ولديه قدمان مسطحتان ورغم ذلك هناك من يحبه،بينما أنا الأصغر منه والأجمل أعيش وحيدا.

ليس من السهل اطلاقا أن نكون أصدقاء أنا وبيار. فهو شخص سعيد. وبالتالي أنا لا أعنيه. من الأجدر أن انصرف لحالي.

مازلنا نمشي.كنت أبحث عن سبب ما لأفرَّ. كم تمنيت لو كنت جالسا، متواضعا، وحيدا وحزينا في زاوية من زوايا بار نهج السين. على الأقل، لن يهتم أحد بي هناك.

حقيقة ؛ لم يكن لبيار أي ذوق. لو كنت متزوجا ما كنت قلت ذلك. عليه أن يعرف أنه ليس من اللائق الحديث عن سعادته لإنسان بائس.

رغم ذلك ؛لم استطع الإفلات من رفيقي. التمعت فكرة ما في ذهني وسرعان ما كبرت، وأعادت لي الأمل. من الممكن أن هذه المرأة لا تحب بيار. لعلها تتألم من تعامله معها! وبما أنه ودود معي، سوف أواسيه. سوف تقلل الصداقة من آلامنا.

لكن ، تراجعت عن السؤال أن كانت حبيبته تحبه مخافة رد ايجابي.

_ مالك ؟هل أنت حزين؟، سألني.

اختفي حزني الذي بدأ يتعاظم فجأة. فالاهتمام الذي أبداه نحوي بيار، كان شيئا حقيقيا، بينما كانت ردود فعلي مجرد تخريفات رجل بائس.

نظرت إليه بحب.

_ نعم ،أنا حزين.

شعرت بالإحباط. فعوض أن يبثني تشكيات ، أسرارا. هاهو يُحمسني.

توقفنا أمام مطعم. تآكل طلاء واجهته.بإمكان المارة قراءة هذه الجملة على بلور المدخل:من الممكن جلب أطعمة.

_ ادخل، نبهني بيار.

أنزلت خيزرانة فأحدثت سلسلة صغيرة رنينا. والتفت من في الداخل.

لبثت عند عتبة الباب.

_ ادخل!

_ لا، أنت الأول.

مشى قدامي، انتبهت، في تلك اللحظة، أنني أنا من فتحت وأغلقت الباب.

كانت القاعة مؤثثة بمناضد طويلة وبعض من مقاعد قاعات الأكل الفسيحة، ذلك النوع الطويل بلا و الذي حين تجلس عند طرفه يهتز طرفه الثاني.

كان دخان السجائر يُحدث دوائر لولبية شبيهة بتلك الدوائر التي يحدثها العصير في كوب ماء. وصلني صوت اهتزاز فتحة القبو تحت وقع خطانا. انتصب أمام كل حريف وعاء فيه ماء وكأس. كان من الممكن بمعية سكين إحداث موسيقى.

جلسنا قبالة بعضنا البعض.

حاول بيار إخراج الكامومبار من جيبه. ولأن هذا الأخير ضيّق استعمل يديه الإثنتين.

ثم، نادى صاحبة المكان باسمها :

_ ماريا!

قروية جميلة، لا تنفك تمسح يديها إلى المرفقين. وحين تمشي يتحرك نهداها وتحدث القطع النقدية في جيب منديلها ضجيجا.

_زجاجتا شوبين وخبز.

_زجاجة واحدة ،كثير عليَّ، قلت بعد ذلك بقليل.

_أنا الذي سيدفع... سأدفع.

_ لكنك لست غنيا.

_ مرة واحدة، وهو ما يعني أنني غير معتاد على ذلك .

لم يكن في نيتي الاساءة لطيبة صديقي.

لذلك فهذه مرة واحدة وهو ما يعني أنني غير معتاد على ذلك ، صدمتني.

إنني حساس جدا، سريع التأثر. ألن أعثر أبدا على شخص طيب ونبيل! آه! لو كنت غنيا ،لكنت كثير العطاء!

اقترب مني كلب بنصف ذيل يتشمم أصابعي. أبعدته ،غير أنه شرع يكرر حركاته معي الى درجة شعرت بالاحراج. رغم أن أصابعي معدومة الرائحة.

لحسن الحظ أن ماريا جاءت تشد عنقي الزجاجتين بين أصابعها والخبز تحت ابطها. طردت بساقها الحيوان اللعين.

مس الكامومبار بالسبابة وقصَّها إلى قطعتين. ناولني القطعة الأصغر.

شرعنا في الأكل بشكل متباطئ جدا بسبب الورق الشفاف الذي يُغلف الجبن.

حين يشرب بيار أفعل مثله. كنت حريصا وبشكل مهذب على ان لا ينخفض مستوى كأسي بسرعة قبله.

لم أكن معتادا على احتساء الخمر ، إذ أنني سرعان ما انتشي.

بدا لي العجائز البائسون في أحد الأركان حكماء.

سكبت بقية الخمر ،وكما كان منتظرا لم يبق الكثير في قعر الزجاجة.

اتَّكأت على إحدى الطاولات. لأول مرة، أنظر في عينيْ مُحدِّثي. هو أيضا

أنهى أكله .وهو يكشط أسنانه بلسانه كان يُحدث صوت قبلة.

بحث عن التبغ في جيبه؛غير أنني سارعت بتقديم سيجارة له.

كنت مستعدا لأحكي له عن حياتي وأن أحدثه بنبرة اعتراف عما لا يعجبني فيه.

_ السيد بيار أنت طيب القلب، قلت ذلك وقد لاحظت أن الخمر غيَّر من صوتي.

_ نعم، أنا طيب القلب.

_ قلة من الناس تفهم الحياة.

_ نعم أنا طيب القلب، واصل بيار وهو يُكمل فكرته. لكن يجب الحذر، أو سوف يسيئون لطيبتك. هل تعرف يا باطون انني فقدت مكاني من أجل رفيق.

لم ترقْ لي كلماته، كنت أقفز من موضوع إلى آخر لأعثر على نقطة تكون محل اتفاق بيننا.

_كنتُ في الحرب.

أخرجت حافظة أوراقي الشخصبة وأطلعته على سجلِّ العسكري الذي بدا على غلافه اسمي بأحرف كبيرة.

_أنا أيضا كنت في الحرب، معقبا. وهو يُطلعني بدوره على أوراقه الشخصية.

طواها. ثم وضع في يدي بطاقته الشخصية، لمحت خصلة شعر تملست من طول إقامتها في حافظة أوراقه، صورته وهو جندي حذو كرسي وصورة

أخرى وهو نصف عار حذو سطل ماء، وصورة أخرى لفرقة من المشاة تعلوهم لافتة كُتب عليها :"

احذرو شباب سي أم رقم 1 "

_ هل رأيت هذا؟ وقد وضع سبابته على رأس أحد الجنود في الصورة.

_ نعم ،أراه.

_ لقد توفي هو أيضا.

حاولت أن أبدو مهتما، غير أنه لا شيء يثير انزعاجي أكثر من حافظات أوراق الآخرين وتلك الصور الفوتوغرافية المتسخة، رغم العدد الكبير من الصور وحافظات الأوراق التي رأيتها خلال الحرب.

لو لم أكن ثملا، ما كنت فرشت أوراقي أطلاقا. كان بيار سينزعج. ولأنه شرع بالبحث في مغلف عنده، خشيت أن يُطلعني على صور نساء عاريات. أمقت ذلك النوع من البطاقات. تزيد من مضاعفة بؤسي.

_ كنت في سان ميشيل. قلت له أحدثه عن نفسي.

عوض أن يسمعني ويطرح أسئلة :

_ أنا أيضا كنت هناك.

_ لقد أصبت وعدت مرة أخرى.

كشفت له عن مكان الإصابة.

_هل تعيش وحدك ؟ سألني بيار وهو يطوي كل أوراقه.

_ نعم

_ حتما انك ضجر.

_ اوه نعم ! خاصة أنني شديد الحساسية، كان يمكن للحياة العائلية أن

تسعدني. لو كنت صديقي ،سيجعلني ذلك سعيدا جدا، سعيدا تماما. يقرفني البؤس والعزلة. أريد أن يكون لي أصدقاء، أن اشتغل، أن أحيا.

_هل لديك عشيقة؟

_ لا.

_ رغم أن النساء موجود بكثرة.

_ نعم ،لكن ليس عندي مال. لن أعرف كيف أتدبر أمري مع عشيقة. بتوجب عليَّ أن ارتدي بدلات نظيفة للمواعيد.

_ هل تعتقد أن النساء تهتم بالملابس. إلا إن كنت تريد معاشرة امرأة بورجوازية. سوف اهتم بالأمر واعثر لك عن عشيقة تستمتع معها.

لو يعثر لي عن امرأة شابة وجميلة تحبني ولا تهتم لملابسي لم لن أقبل؟

_ ليس من السهل العثور على امرأة جميلة.

_ ليس اليوم، لقد تخلت امرأتي عن طموحاتها من أجلي، أنا سعيد بها معي.

أرغب في صديق بائس، متشرد مثلي ليس لنا أي التزامات. اعتقدت ان بيار هو هذا الصديق، فقير وطيب. أخطأت. يحدثني في كل لحظة عن عشيقته وهو ما يغرقني في كآبة هائلة.

_ باطون تعال غدا بعد العشاء الى بيتي، سترى امرأتي الصغيرة. أسكن في نهج جيت لوكور اوتيل دي كانتال.

قبلت لأنني لم أجرؤ على الرفض. أحس جيدا أنني لن امتلك شجاعة زيارة ناس سعداء.

هل تنتهي علاقاتي دائما بشكل فظيع؟

قمنا. رأيتني في المرآة على الحائط؛ كما لو أنني كنت في محاكمة. إنني أعرفني دائما مهما كانت كمية الخمر التي احتسيتها. غير أن محيط نصفي الأعلى بدا ضبابيا كما لو أنه ظل متمدد لشخص آخر.

عبرت القاعة يتبعني بيار.

حالما صرت بالخارج صفعت وجهي ريح قوية، باردة كمن يطل من باب عربة قطار. للحظة كنت سأرافق صديقي، لكن، عدلت عن ذلك :فما الفائدة؟ ثم، ليس هناك ما يربط بيننا. فهو محبوب،غني، سعيد.

إضافة لذلك،الآن التاسعة ليلا رقت عودتي إلى غرفتي .

لم أجرؤ على أن أقول إلى اللقاء، كان بيار أقل لياقة مني.

_ نلتقي غدا، باطون.

_ نعم ، نلتقي غدا.

مشيت مباشرة إلى الأمام إلى أن وصلت شارعا مألوفا.

كانت الحانات ملأى ،دافئة، مضاءة.

رغم أنني لم أكن ظمآن، غير أن رغبة احتساء شيء ما استبدت بي. حاولت مقاومة هذه الرغبة وفكرت أنني لم أصرف من المال إلا القليل.

دخلت حانة.

انتشر بخار حمام حول المقصف. كان هناك نادل يغسل كأسا.

طلبت الأقل ثمنا :قهوة عادية

_ كبيرة؟

_ لا، صغيرة.

3

قضيت كامل يوم الغد، أردد بيني وبين نفسي أني لن أذهب إلى بيت بيار. فبإمكانه أن يداعب عشيقته أمامي. سوف تجلس في حجره. توشوش في أذنه.

سوف تثيرني هذه الحركات الحميمية.

أنانيون هم العشاق وغير مهذبين.

في السنة الماضية، كان هناك زوجان شابان يقيمان في شقة بائعة الحليب.

عند المساءات، يطلان من النافذة. يصلني صوت قبلاتهما وأستطيع تمييز القبلة من الفم عن القبلة في مواضع أخرى من الجسد.

حتى لا أسمعهما ،أتسكع في الشوارع إلى حدود منتصف الليل. حين أعود، أتخلص من ملابسي دون إحداث أي ضجيج.

يا للشقاء؛ انفلتت من يدي فردة حذائي ذات مرة ووقعت على الأرض.

استيقظ العشيقان وعاد من جديد صوت القبل.

اندفعت أدق على الجدار وأنا مغتاظ. وبما أنني لست شريرا، ندمت بعد قليل على إزعاجهما فمن المؤكد إنهما ارتبكا. ولذلك قررت أن أعتذر منهما.

لكن، عند التاسعة صباحا، عبرت قهقهات عالية الجدار. كان العاشقان يسخران مني.

عند المساء، إثر العشاء، شرعت في التسكع على جادة سان جرمان.

أغلقت المحلات أبوابها. مصابيح مقوسة تنير أوراق الأشجار. كان الترامواي الأصفر الطويل ينساب بلا عجلات كما لو أنه علب. خلت المطاعم من روادها.

إنها الثامنة ليلا.

رغم أن بيار لم يكن الصديق الذي أحلم به، لكن، لم أتوقف عن التفكير فيه.

ما انفك خيالي يبتكر أصدقاء جيدين للمستقبل، لكن، في انتظار ذلك سوف اكتفي بأي كان.

من الممكن جدا ألا تكون عشيقة بيار جميلة. لاحظت أن النساء اللاتي لا نعرفهن، يتم تقديمهن دائما على أساس إنهن جميلات.

في الجيش، حين يحدثني جندي عن أخته، عن زوجته، عن قريبته أفكر مباشرة في فتاة فائقة الجمال.

دون دراية مني بكيفية التصرف في وقتي، وجدتني اتجه نحو اوتيل دي كانتال. وأنا في منتصف الطريق راودتني فكرة العودة، لكن هاجس قضاء ليلة فارغة أبعد شبح هذه الفكرة.

يشيع نهج جيت لو كور رائحة الماء الآسن والخمر. كان نهر السين يجري قريبا من هذه المباني الرطبة. اعترضني صبية يحملون في أيديهم أوعية امتلأت ماء. كان المارة يمشون على المعبَّد:لم تكن هناك سيارات للخشية منها.

بعض المحلات التي تغلق متأخرة بدت خالية، تعرض خُضَرا مطبوخة،هرائس وبطاطا مقلية في صفائح من الزنك.

مازال الوقت باكرا جدا للذهاب إلى بيت بيار. لا أحب أن أفاجئ

الناس، فهم يعتقدون أن ذلك تطفلا عليهم بغية معرفة ماذا يأكلون.

يرخي المعطف كتفيَّ. يُجبرني وجع الخاصرة على المشي منحنيا. ولكم هو مدعاة للشفقة الجلوس على مقعد عند المساء.

دخلت إذا إلى بار بساحة سان ميشيل وطلبت كالعادة قهوة. علقت قبعتي عند ركن قبالة المرآة.

كان هناك على الجدار السيراميك لوحة لمصريات جميلات من العصر الفرعوني يملأن قلالا. رجلان في بدلات تناسب العصر يلعبان الشطرنج. ولأني لا أعرف قواعد هذه اللعبة، لم أكن أفهم أي شيء في حركات البيادق.

جلب لي النادل بمنديله الألبكه المكشوف عند البطن قهوة. كان مهذبا. بل جلب لي ايضا احدى المجلات لتصفحها.

ما أن شرعت في تصفحها حتي نبهتني رائحة أوراقها أنني في المكان الخطأ. لكنني واصلت تصفحها. وكان لا بد لي أن انحني لمشاهدة الصور فيها بما أنها كانت براقة.

من حين لآخر القي نظرة على قبعتي لأتأكد من وجودها.

حين بلغت صفحة الاعلانات أغلقت المجلة.

يشير طبق الفنجان لثمن القهوة ثلاثين سنتا. آملت أن يكون هذا هو مبلغ استهلاكي، لكن بما أن تاريخ الأطباق يشير إلى ما قبل الحرب خمنت ان يكون المبلغ أكثر.

_ أيها النادل !

رفع في لحظة طبق الفنجان ومسح الطاولة رغم أني لم أوسخها.

دفعت له فرنكا. كنت أنوي أن أعطيه فلسين بقشيشا، لكن في آخر لحظة تركت له أربعة.

خرجت ،ما عاد ظهري يؤلمني. مازالت القهوة تدفئ بطني.

مشيت في الشوارع برضى موظف يغادر مكتبه. فكرة لعب دور في المجتمع تجعلني بمزاج رائق.

وضعت في فمي آخر سيجارة لي رغم أنني أحببت الاحتفاظ بها ليوم غد صباحا. كنت أملك قداحة ،لكنني فضلت أن أطلب نارا لسيجارتي من أحد المارة.

كان هناك أحدهم واقفا عند ناصية الشارع يدخن غليونا. ترددت في الاقتراب منه لاني أعرف ان مدخني الغليون لا يستجيبون لمن يطلب منهم نارا لسيجارته: فعادة ما يحافظون على رماد الغليون.

بعيدا عن هناك في طريقي._ بما أنه عندي طريق _ كان هناك شخص آخر يدخن.

ما أن لحظني خاطبته. مد لي سيجارته ،وحتى لا يرتجف، ضغط بإصبعه على يدي. كانت أظافره مقلمة. و خاتم يزين بنصره، تدلى كُمُّ قميصه إلى الإبهام.

انصرفت بعد أن شكرته أكثر من مرة.

بقيت لوقت طويل أفكر في هذا الشخص الغريب. كنت أحاول أن أخمن في نظرته لي،وهل كان يقوم بنفس ردود فعلي.

أننا نعمل جاهدين على ان نترك انطباعا ذا أثر طيب على الناس الذين لا نعرفهم.

4

أعلى باب أوتيل دو كانتال تدلت كرية بيضاء بحروف البداية، شبيهة بفتحة للتهوئة.

دخلت. تبينت من خلال ستارة قاعة للأكل، لا بد إنها تستعمل كمكتب، بوفيه بصفوف من أعمدة درابزين صغيرة، خزانة حيث انتصبت أحرف.

طرقت بكل لطف على المربع الزجاجي حتى لا أكسره. أزاحت يد البساط وظهر شخص متكئ إلى الخلف.

_ ما حاجتك؟

_ السيد ببيار، من فضلك.

دونما أن يتكلف عناء البحث، رد قائلا:

_ الطابق السادس، رقم تسع وثلاثين.

بنهاية الطابق الأول ،يختفي السجاد الذي يغطي الأرضية. كل باب عليه رقم. رزم من الملاحف تكدست في الممر.

وأنا أتسلق الدرج كنت أفكر في عشيقة بيار. ولإبعاد حالة الذهول التي تملكت بي كنت أردد بيني وبين نفسي :إنها قبيحة... إنها قبيحة... إنها قبيحة.

بشق النفس بلغت الطابق الأخير. بدا لي كما لو أن قلبي غير مكانه من شدة دقاته المتسارعة.

أخيرا طرقت الباب.

_ من هناك؟

_ أنا

كان من السهل جدا، أن أنطق اسمي، غير إنني تجنبت ذلك تحفظا. فأن أتلفظ باسمي يثير في داخلي إحساسا غريبا، خاصة من خلف باب ما.

_ من؟

_ باطون.

فتح بيار الباب، لمحت امرأة جالسة، ومرآة الخزانة عكست كل ما في الغرفة.

كانت هذه المرأة الشابة جميلة شعرها المتجعد منفتل، كما لو أن ضوء المصباح قد أحرقه.

لبثت عند الباب واقفا مذهولا، على استعداد للفرار.

قامت من مكانها واتجهت نحوي.

غير أن فرحا مجنونا ألجمني. مجرد الإحساس أن نَفَسًا دافئا يداعب وجهي فهذا يُشعرني بالقشعريرة. لكن حيويتي المفرطة قليلا لم تمنعني من أن أُربِّتَ على كتف بيار. ورغم حبوري هذا ،شعرت أنني محل سخرية. كنت أرغب في الضحك، في الرقص، في الغناء:كانت عشيقة بيار تعرج في مشيتها.

كانت الشقة متواضعة.رجل روماني، فتاة لعوب. طناجر مبعثرة فوق أوراق جرائد، فرشاة أسنان في كأس ومجموعة من الزجاجات الفارغة تكدست في المدخنة.

_ نينا ، أعدِّي قهوة!

شغلت الشابة موقد البترول الملطخ بأصفر البيض.

بث طلب إعداد القهوة الكثيرة من الأريحية في داخلي.

وحتى لا يظهر اهتماما بالصمت الذي يعم المكان ويصبح مملا مع مضي الوقت كان بيار منشغلا بالبحث عن حزقة في علبة الأدوات والعشيقة تمسح داخل بعض الفناجين بإبهامها.

كنت من جهتي أريد التحدث، لكن كل ما أمكنني العثور عليه يشير إلى ضرورة وضع حد لهذا الموقف المثير للسخرية.

كنت استغل انشغالهما عني بالتطلع لمحتويات الغرفة. كان البخار الذي يتنفسه إبزيم إبريق القهوة يتصاعد متلويا في الفضاء، تبعثرت المخدات على السرير ، كانت سوداء في وسطها.

_ هل ترغب في شيء من الحليب؟

قلت كما ترغبين.

تحلقنا جالسين حول الطاولة. ومخافة من أن ألمس أقدام مُضيِّفيِّ سحبت ساقيَّ إلى الخلف تحت كرسيِّ.

أغاضتني سرعة إعداد القهوة. كنت أعرف جيدا، إنه حالما الانتهاء منها، لا بد أن أغادر.

مدت لي نينا فنجان القهوة.

_ حتما، أن قهوتك جيدة، قلت ذلك قبل أن أتذوقها.

_ هي من محل داموي.

حركت الفنجان مطولا ، فإذا ما شربت القهوة لا يبقى السكر في قاعه.

كنت أترشف ببطء ،محاذرا أن لا تنسكب أي قطرة وأنا أحمل الطبق إلى فمي.

_ هل ترغب في المزيد؟ سألت نينا.

رغم ان فنجاني كان صغيرا لكنني رفضت بأدب.

فجأة ،وضع بيار يده على يدي دون سبب. وبسرعة فكرت أن أسحبها _ فمن عادتي أنني لا احتمل الاحتكاك بالآخرين _ لكنني لم أفعل.

_ باطون، اسمعني.

نظرت اليه. كانت هناك مسام تثقب أنفه.

_ أريد أن أطلب منك شيئا ما.

أسعدتني فكرة أن أكون مقبولا عند صديق ما.

_ هل بإمكانك أن تقدم لي خدمة.

_ نعم... طبعا...

خشيت أن يطلب مني مساعدته في أمر غامض أو مهم جدا. أحب أن أقدم خدمات، خدمات صغيرة طبعا لإبراز طيبتي.

_ اقرضني خمسين فرنكا.

التقت أعيننا. جاءتني آلاف الأفكار.ومن المؤكد، أن بيار فكر نفس الشيء. لم تكن هناك حدود بيننا. كان بإمكانه أن يستقرئ

ما بداخلي بكل سهولة.

انعدمت لحظة التردد التي تستبد بأي شخص في مثل هذه الظروف، وبصوت واثق تماما قلت :

_ طبعا سوف أقرضك إياها.

كنت سعيدا ليس فقط بمد يد المساعدة ولكن بالاعتراف. سوف يتواصل الحديث بيننا. فالآن لم أعد أشعر بالإحراج. يمكنني البقاء الى منتصف الليل، والعودة غدا أو بعد غد ودائما. فإن اقترض مني خمسين فرنكا، فذلك يعني أنني محل ثقته.

كنت أحمل منحتي في جيبي. لكنني، لن أعطي لبيار ما طلبه مني. بدوت كما لو أني لا أفكر في ذلك. شعرت إنه كلما انتظرت اطول، فسيعاملني بأكثر لطف.

ها أنا ذا الآن أقوم بدور ما. كانا يراقبان حركاتي آملين أن أسحب حافظة نقودي. لسنوات طويلة،لم أحظ بهكذا اهتمام. وكل كلمة أقولها هي محل ترحاب. كانا يحدقان فيَّ،ويخشيان أن أكون قد نسيت.

لا بد من أن يكون المرء قديسا لمقاومة كل محاولات إطالة هذا الفرح.

آه ! كم أعذر الناس الأغنياء!

تأخر الوقت. قمت من مكاني. شحب وجه بيار : لم يكن يمتلك الجرأة لإعادة الطلب. كنت أتظاهر دائما بنسيان الأمر بينما كان كل تفكيري منصبا عليه.

توقفت نينا عن الحركة وهي تحمل المصباح في يدها ورأسها في الظلام.

بغتة؛ انتابني شعور إنهما تفطنا للعبة التي كنت بصدد القيام بها.

ولكي أزيل عنهما هواجسهما. أخرجت حافظة نقودي في حركة مستعجلة.

_ لقد التهيت... فنسيت الأمر.

مددت الخمسين فرنكا.

_ شكرا باطون ،سأعيدها لك الأسبوع المقبل.

_ أوه!... ليس هناك داع للاستعجال!

انطفأت أضواء الدرج، غير أن أكمام المصابيح مازلت بحمرة الجمر.

من المؤكد أن العشيقين يتأملان الورقة النقدية مثل صفيحة فوتوغرافية ليتأكدا من سلامتها.

يُوتِّرني الشعور بأنني انخدعت. فبالكاد شكرني بيار.وهو لم يكن في الحقيقة فقيرا. فلديه عشيقة ،خزانة ملأى بالملابس، سكر، بن، سمن. يعرفُ العالمَ. لماذا يستلف أموالا من بائس مثلي؟

لمحت أشياء كثيرة في غرفته. لو أخذها إلى هيئة القرض البلدي، لأمكنه بسهولة الحصول على خمسين فرنكا.

شعرت ،بسجاد الطابق الأول تحت قدميَّ، ثم رأيت صاحب المكان جالسا في قاعة الأكل يقرأ جريدة مطوية.

في الشارع، أحسست بقشعريرة. كانت الريح تولول بين البيوت.

انتصب عمود كهربائي وسط دوارة باهتة.

مشيت خطوات تحت إضاءة مكتب الاوتيل.

نزلت قطرات على الأرض لكن لا قطرة تنزل على الأخرى.

5

لم أتمكن خلال تلك الليلة من النوم بشكل جيد.

كانت الأغطية تسقط في كل لحظة على جانبي السرير. أمد يديَّ لمعرفة أين يوجد الجدار كلما تصاعد البرد في ساقيَّ.

أخيرا، تسرب النور من خلال نافذتي عند الفجر. خرجت الطاولة بلطف من دائرة الظل،بانت ساقاها أولا. أصبح السقف مربع الشكل.

وظهر النهار فجأة. وعم الغرفة نور صاف كما لو أنه تم للتو تنظيف بلور النافذة. رأيت الأثاث جاثما ،رماد ورق في المدخنة وعوارض الستارة أعلى النافذة.

ظل المكان غارقا في الصمت لدقائق.

ثم صوت باب ينغلق؛ رن جرس منبه لوكوان؛مرت سيارة بائع الحليب وهي ترسل رنين أغطية الصفائح.

قمت ،فسريري يصبح باردا حين استفيق متأخرا.

حين ننام بين غطائين أبيضين، يكون بإمكاننا بقفزة من السرير أن نتأمل أنفسنا في المرآة. بالنسبة لي أغتسل قبل أن أراني في المرآة عند الصباح.

تزين الشمس في الخارج الطابق الأخير للمنازل. مازالت لا تغشى العيون.

كان الهواء الذي اتنفسه ملء صدري منعشا كما لو أنه نعناع.

ريح خفيفة ،تبعث الإحساس بالليلك، ترفع ذيل معطفي الذي يشبه

معطف جندي.

رغم إنه الربيع ؛لكن لا أثر للعصافير ولا وجود للبراعم.

كنت أرغب في التمشي. ومن عادتي حين أغادر غرفتي اتجه نحو شارع السين. أفعل ذلك بغاية تجنب أعين المارة وأصحاب المحلات .

كانت النوافذ مفتوحة. تتأرجح قمصان النوم وهي تجف معلقة وقد يبستها الريح فتبدو كما لو أنها لافتات معدنية.

من خلال الأبواب الموارية للمحلات يمكن رؤية العوارض نظيفة، فارغة.

حالما تغطي أحدى البنايات الشمس أسارع في خطاي.

أصبحت الأنهج متسخة أكثر من ذي قبل. بعض الألواح من الخشب حيث يلهو الصبية عندما يخرجون من المدرسة، تشد أسس بعض البنايات. برز التراب من تحت المكدام المهشم للأرصفة. جبس الواجهات الأسود يشبه تلك اللوحات في خلفية غرفة المصور الفوتوغرافي.

أقبلت سحابة وغطت الشمس. والشارع الكامد أصبح رماديا. وكف الذباب عن الالتماع.

شعرت أني حزين.

لقد اندفعت منذ ساعة نحو المجهول متوهما أن أكون متشردا،حرا وسعيدا. وانتهى كل شيء الآن بسبب هذه السحابة.

عدت أدراجي.

بعد الظهيرة ،ولا وجهة لي أمضي إليها بقيت أتسكع عند أحواز أوتيل دي كانتال.

لقد خمنت جيدا ،فكرت أنه في صورة التقيت بيار، لن نجد ما نتحدث بشأنه، لكن لم استطع مبارحة هذا الحي.

ربما ،وحدهم الفقراء الذين هم بلا أصدقاء يفهمون هذا النوع من الانجذاب.

لقد كان بيار أقل بكثير مما أطمح اليه كصديق ، ورغم ذلك كان كل شيء بالنسبة لي.

في ساحة سان ميشيل وقف رجل ذو قبعة مستديرة، يوزع نشريات.

مَدَّ لي مجموعة كبيرة منها .

ليس هناك من يتزاحمون من أجل هذه الأوراق. يكفي أن تُخرج يدك من جيبك، تأخذ النشرية، تدعكها، تلقي بها. أي عمل هذا!

أشعر بالشفقة تجاه هؤلاء الموزعين.

أقبل ما يقدمونه لي. أعرف أنهم ليسوا أحرارا انك إلا بعد توزيع آلاف القطع من هذه الأوراق.

لكم يُغضبني أولئك الذين يمرون بازدراء أمام هذه الأيادي التي تمنح ولا تأخذ شيئا في المقابل.

إنها الثالثة بعد الزوال، اللحظة التي أمقتها خلال كامل اليوم. ولاشيء من تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة يمكن أن يبعد ضجرها. عدت إلى شارع جيت لوكور في محاولة للتخلص من ضجري وبنية زيارة بيار.

مررت أمام باب الأوتيل أربع مرات، وفي كل مرة استدير راجعا محرجا. وكم أن ذلك مدعاة للسخرية حين تكون محرجا وتستدير في الشارع عائدا.

لم أدخل.

خمنت أنه من الممكن أن يسيء بيار استقبالي. كان يجب أن أعطيه الخمسين فرنكا مباشرة بعدما طلبها مني، وما كان يجب أن أتأخر؛ فمن المؤكد أنه مستاء مني.

رغم ذلك ،لبثت واقفا عند زاوية الشارع، أترصد الأوتيل.

تشاغلت بالنظر إلى نوافذ المنازل، حين ظهر بيار على عتبة الباب رفقة شخص لا أعرفه.

رغبت في الركض نحوه، لكن بما أنه سيفترض أنني انتظرته لساعات، تراجعت. لن يصدق أبدا أنني وصلت للتو.

لا أحد يصدق الصدفة، خاصة إذا ما كانت هي مبررك الوحيد.

كان بيار يضع كشكول حول عنقه وقد قص شعره عند العنق. بدت لي الحركات التي يقوم بها وهو يتكلم غريبة. لاحظت أن الأمر كذلك دائما حين نشاهد عن بعد وبشكل خفي؛ صديقا مع شخص مجهول .

كنت اختفي خلف سيارة، ما كان بإمكان بيار أن يعرفني من خلال ساقيَّ.

كان الرجلان يمشيان بسرعة وسط الطريق.

فجأة عنت لي فكرة غبية وغريبة.

مشيت بخطى متوثبة في شارع آخر مواز.وبعد أن قطعت مئات الأمتار وعبر ممر صغير وجدتني في الشارع الذي بارحته منذ حين.

ها أنا ذا واقف انتظر أمام واجهة أحد المحلات .

ولكي أوقف دقات صدري المتسارعة، شرعت في التنفس بأنفي. كان

جورباي قد وقعتا على سيقان نعليَّ.

اقترب الرجلان. كان وقع النعال الاربع يشبه مشية حصان على الرصيف.

خلال لحظات سيكون بيار ورفيقه هنا.

لم أعد أستطيع النظر في فترينة المحل خشية أن تلتقي عيناي بعيني بيار في البلور العاكس.

فكرت للحظة أن التفت بوجه مرح. لكن خشيت ألا يبدو هذا المرح جديا.

غير أن بيار لمحني. كان الشارع ضيقا. ربما تصور أنني أتسكع هناك وسوف يبادرني بالكلام.

كان هذا ما أرغب فيه.

ويا للبؤس ؛ مر الرجلان دون أن يكلمني بيار.

كنت على يقين أن بيار قد رآني وهو ما منعني من إعادة هذه الكوميديا.

لا حظ لي فعلا. لا أحد يهتم بي. يعتبرونني مجنونا. رغم أنني طيب وكريم.

هنري بيياروغد. لن يعيد لي الخمسين فرنكا. هكذا يكافئك العالم دائما.

كنت حزينا ومهتاجا. الشعور بأنني سوف أقضِّي كل حياتي في العزلة والفقر يزيد من يأسي.

إنها بالكاد،الرابعة بعد الزوال. يجب أن انتظر على الأقل ساعتين للذهاب إلى المطعم.

كانت هناك غيوم بيضاء تتسابق تحت غيوم أخرى سوداء.

فقدت الشوارع ذلك الجو الكئيب الذي اتسمت به بعد منتصف النهار، وذلك دونما أدنى شك بسبب صحف المساء.

لاحظت إن هذه الصحف توقظ المارة، حتى أولئك الذين لا يقتنونها. جُعِلت الصحيفة لتُقرأ. فحين تظهر عند المساء فلا بد أن الأمر يتعلق بشئ مهم.

لقد أربكني حقيقة تصرف بيار. رغم ذلك أجدني مشدودا إلى الحي الذي يقيم فيه.

كنت أمشي بسرعة في الأنهج التي أعتقد أن الآخرين رأوني أمر بها،وأبطئ في تلك التي أعبرها لأول مرة.

مرت امرأة تعرج بخطاها وفكرتني بنينا. من المستحيل أن شابة فتية وصغيرة بهذا الشكل تقع في غرام بيار. لن تقيم فتاة في سن الثمانية عشرة مع رجل أربعيني إلا إذا كانت مجبرة على ذلك.

وشيئا فشيئا بدأت فكرة زيارة نينا تتسرب في دماغي.

شعرت بالحماس للفكرة. حين أكون وحيدا مع امرأة، لا انزعج من تحفظي المعتاد. عندي إحساس إن هذا اللقاء يجعلني منشرحا.

نعم ،سوف أعرف كيف أحدث هذه الفتاة الشابة. سوف أخبرها بكل سيئات بيار. سوف تفهمني. سوف تتركه و، من يدري؟ لعلها تحبني أنا؟

ما أن لمحت الكرية البيضاء لأوتيل دي كانتال، حتى انتابني إحساس، إنه كي لا أوقظني من حلم جميل، يجب أن أنام.

دخلت الأوتيل وأنا أحاول أن أقنع نفسي أنني جئت للتو من بيتي،وأنني متأخر، وفي آخر الأمر لا غرابة من زيارتي.

تسلقت الدرج ببطء شديد حتى لا أرهقني. تصدر يدي المتعرقة وهي على الدرابزين صفيرا خفيفا.

لمحت إحدى الشغالات تكنس رواقا معتما وقد غطت رأسها بفولار. من خلال نافذة مفتوحة رأيت باحة وخلفية أحد المنازل بشرفات للاكل معلقة كما لو أنها أقفاص طيور.

عند الطابق الأخير. توقفت.

انفتح أحد الأبواب وواصلت طريقي فمظهري ليس مريبا كما أولئك الذين يتوقفون عند الدرج.

كنت مذهولا. كانت أذناي تطن كما لو، كنت أسمع البحر في قوقعة. تبلل قميصي.

ما أن انتهيت من تسلق آخر الدرج طرقت الباب.

_من هناك؟

_باطون... باطون.

_اه ! طيب.... انتظر....أنا بالحمام.

مشدودا قدام الباب مثل موظف الغاز، منصتا لأقل الأصوات، خائفا من سماع صوت بيار أو أي أحد مجهول.

كان هناك نور قليل يتسرب من خلال ثقب قفل الباب. لمحني أحدهم من بعيد فتراجعت. سيكون من المخجل جدا لي لو فاجأني أحدهم وأنا منحن أطل من ثقب الباب.

ظهرت نينا أخيرا.

كان شعرها مبللا، محلولا للصدغين، حاجباها ملتصقان، أكثر سوادا،

شفتاها طريتان، بلا تجاعيد، كانت تبتسم. وكان لديها أسنان جميلة :لثتها غير بارزة.

_ السيد باطون ،تفضل.

_ هل أزعجك؟

_ لا.

كررت لا عدة مرات.

مشت قدامي، غير مُحرجة من عرجها.

عاد جذعها مستقيما حين توقفت.

_ هل السيد بيار هنا؟

_ لقد خرج منذ حين.

_ هذا محرج إذا.

_ بإمكانك انتظاره.

جلست في نفس مكان البارحة. كعادتي دائما أجلس في نفس المكان الذي جلست فيه أول مرة.

لم تكن الغرفة نظيفة كما رأيتها البارحة على ضوء المصباح. عارضة مطلية ،خزانة بمرآة ومدخنة من المرمر الأسود.

لوحات من الخشب اللماع تداعت من السرير. الورق الذي يغطي الجدران بهتت ألوانه من الشمس. كان المكان يُشيع رائحة معجون أسنان. بعض الورود المطرزة تزين الستارة، عجلات السرير الصغيرة حززت أرضية الغرفة.

_ السيد باطون ،لا تلتفت يجب أن أنهي وضع ملابسي.

بعثت كلمة "وضع ملابسي" في داخلي الرغبة لاحتضان الفتاة من خصرها، لأنها حتما فكرتني في التعري.

كنت أخشى عودة مفاجئة لبيار. ما الذي كان سيقوله وهو يجدني هنا بينما حبيبته تلبس ثيابها! سيغار حتما.

انتبهت لصرخة مكتومة تحت الضغط، لبقبقة قميص نظيف ينفتح ومن حين لآخر تصلني قرقعة مفصل عظمي.

أتعبتني عيناي وهي تتلصص على الفتاة.

حالما أنهت زينتها جاءت لتجلس قبالتي.

وبشكل غريزي حوَّلت بصري عنها، رغم أن ذلك لم يكن ضروريا.

رأيت بنطلون امرأة ،ساقاه يلتقيان عند نقطة واحدة و بصمات قدم بخمس أصابع على الأرضية

_ كيف حالك سيد باطون؟

_ جيد.... وأنت؟

لم ترد. دونما انشغال بي كانت تدرم أظافرها.

ولأنني تصورت أنها ما ان تنتهي من الانشغال بأظافرها سوف تهتم بي، شرعت في عدِّ الاصابع المتبقية التي لم تدرمها بعد.

وضعت المصقل.

_ من المؤكد إنك تشعرين بالملل ياسيدتي حين لا يكون بيار هنا؟

_ نعم... جدا.

أنزلت تنورتها لإخفاء ساقها القصيرة.

_ لا بد أنك سعيدة معه.

_ نعم.

بدت لي أجوبة نينا باردة، غمغمت:

_ نعم أفهمك.

حدقت فيَّ. كفت يداها عن الحركة.

_ أفهمك ،كررت مرة أخرى، أنه يزعجك.

_ من ؟

_ بيار.

ساد صمت. كانت ساكنة. وحدها عيناها تتحركان.

صرت متأكدا الآن أنها لا تحبه. كانت ضجرة جدا حين أتحدث عنه. هي لا تدافع عنه.

قمت من مجلسي. ففي اللقاء الأول لا يجب استعجال الأمور.

وهي ترافقني إلى الباب مدت لي يدها بكل طلاقة بدون ان تحني مرفقها.

وبما أننا وحدنا تركت يدي في يدها.

وجدتني عند العتبة وهي من وراء الباب. كانت تنظر لأذنيَّ لترى هل احمرَّ وجهي.

_ إلى اللقاء، آنستي.

_ إلى اللقاء، سيدي.

مازال لديَّ ثانية واحدة لتحديد موعد آخر قبل أن ينغلق الباب.

_ غدا عند الثالثة.. غمغمت

لم ترد.

نزلت الدرج راكضا مثل ساحرة.

6

ما هي إلا ثوان إثر ذلك، حتى أدركت الخارج، محمرا حتى الرقبة، مختنقا كما لو كنت في قبضة الريح. توقفت أمام إحدى الفترينات أحدق فيَّ. برز شريان لا أعرفه يخترق جبيني من الأعلى إلى الأسفل.

رغبت في العودة إلى الأوتيل وتقبيل نينا. إنها تحبني. يجب على المرء أن يكون خجولا جدا كما كنت أنا منذ حين في بيت نينا حتى لا ينتهز الفرصة.

وهي بدورها ودونما أدنى شك نادمة، أنني لم أكن جسورا. قد أغاظها حتما ضعف شخصيتي.

لكنها ذكية لدرجة انها تفهم احترامي لها. فمن المعيب تقبيل شخص تعرفنا إليه للتو.

المهم، إنه سيصبح عندي عشيقة تحبني ولكي تهبني نفسها لا تطلب مني أي شيء.

وحتى لا يبدو لي الليل طويلا جدا. عدت إلى غرفتي متأخرا.

اتكأت على النافذة بعد أن نزعت عني سترتي. يذكرني الهواء الخامل بالخارج في ليالي الصيف الماضي. القمر الممتلئ بلطخات ماء يضئ حافة أحد الغيوم.

بعدها استلقيت على السرير.

يجب أن أنام وإلا سوف يكون وجهي غدا صباحا شاحبا، فاقدا لتناظره

وفكي ناتئ بشدة إلى اليسار. ومن السهل ملاحظة ذلك عليَّ.

رغم ذلك لم أستطع أن أغمض عينيّ. أعدت ترتيب فراشي كم من مرة . وقفت عاريا عند النافذة لأشعر بالبرد، فكرت في نينا.

ها أنا أراها قدامي في ضبابة بطاقة بريدية. سأجد وسيلة لاستقدامها إلى بيتي من دون أن تتفطن لذلك القائمة على شؤون المبنى .

وبما أنني لم أستطع النوم استعدت كل أحداث حياتي في الجندية. أليس من الغريب أن تلك الأماكن التي كنا فيها بؤساء وأشقياء تصبح رائعة حين نتذكرها.

وهو نفس الشيء حينما نادرا كنت استعيد أغاني الطفولة، حتى لا أثلم الذكريات التي تثيرها، لذلك أنا لا أفكر في حياتي كجندي إلا حين لا أجد ما أفعله.

أحب أن أحتفظ في دماغي بمؤنة من الذكريات أعرف إنها هناك. وهذا يكفيني.

غفوت قليلا حين عادت بائعة اللبن من السينما وأغلقت بابها.

أغلقت نافذتها أيضا ،ثم اغتسلت وليس ذلك من عادتها عند الليل.وصلتني نفس تلك الأصوات التي سمعتها حين كنت أمام باب بيار. لا حظت ان الاحداث الجديدة للحياة اليومية تتابع بشكل متسلسل.

غادرت السرير.

بسبب البرد برز الإبهام نحو الأعلى، ذرعت الغرفة جيئة وذهابا ، آملا أن تراني بائعة اللبن من خلال ثقب في جدار غرفتها.

عند أول الفجر فقط، أخذني النوم. لم يأتني صوت منبه لوكوان، ولا

مكنسة القائمة على المبنى والتي تعودت أن تضرب الأرض عمدا عند بابي.

حين استفقت كان مربع الشمس قد تجاوز سريري ويرتجف على الجدار.

كان الوقت متأخرا. نهضت مستعجلا ،عيناي مغمضتان، والخد محزز مثل ورقة تحت طيات غلاف مجعد.

حالما انهيت وضع ثيابي شرعت أمشط شعر رأسي.

كان مشطي قديما لدرجة أن الشعر التصق في صفيحته. اضطررت لقلعه شعرة شعرة.

ثم خرجت.

كان يوما ربيعيا فاتنا. الشمس فوقي تماما وكنت أمشي فوق ظلي.

املك عُدَّة حلاقة ،غير أن موسى الحلاقة لم تعد صالحة. لذلك دخلت عند حلاق.

كان الحلاق يكنس بقايا شعر متساقط على الأرضية. يرفع أكمام قميصه وأسلاك معدنية تحيط بذراعيه أعلى المرفقين. يشد ربطة عنقه بمشدٍّ.

حلق لي ذقني بشكل جيد.

الثالثة بالضبط كنت أدق باب بيار، الجلد صلب والوجه بالبودرة.

من المؤكد أن نينا في انتظاري الآن.

برزت شرايين يدي أكثر من المعتاد.

لا أحد يرد. إنما هي نينا اللعوب تريد أن تتعبني.

طرقت الباب هذه المرة بأكثر قوة.

ألصقت أذني بالباب لأسمع.

لا صوت غير الصمت.

عاودت طرق الباب بقبضة يدي. نفس الصمت. لم تكن نينا هنا. وبما أن الممر كان فارغا نظرت من خلال ثقب قفل الباب رأيت النافذة بستارة طويلة.

لم تنتظرني نينا. نينا لا تحبني.

وفجأة، تملكني رعب غبي. ماذا لو كانت الفتاة ميتة، هنا، في غرفتها، سوف يتهمونني بقتلها.

نزلت الدرج بسرعة قافزا كل درجتين.

هكذا انتهت علاقتي بالزوج بيار. لم أعد إطلاقا لزيارتهما ولا حتى للمطالبة بالخمسين فرنكا.

تجنبت ساحة سان ميشيل. ولو كان بيار يرغب كان من الممكن أن نكون سعداء.

أبحث عن صديق. اعتقد أنني لن أعثر عليه إطلاقا.

نوفو، البحار

أحب التسكع على حافة السين. تفكرني الأرصفة، الأحواض، السدود في بعض الموانئ النائية حيث أريد أن أقيم. أري، في خيالي، صبايا وبحارة يرقصون، أعلام صغيرة، سفن متوقفة بصواريها بلا أشرعة.

لا تدوم طويلا هذه الأفكار.

أرصفة باريس مألوفة عندي كثيرا:لا تشبه سوى لحظة فالتة تلك القرى الضبابية لأحلامي.

ذات ظهيرة من شهر مارس كنت أتنزه على هذه الأرصفة. والريح تعبث معطفي ترفعه مثل تنورة وتجبرني على الإمساك بقبعتي على رأسي. وتمر من حين لآخر النوافذ الشفافة لقارب نزهة، أسرع من التيار. كان لحاء الأشجار المبتل يلتمع. من الممكن مشاهدة برج محطة ليون بساعاته المضيئة دون التفاتة من الرأس. حين تتوقف الريح ،يُشيع الهواء رائحة جدول جاف.

توقفت ،و اتكأت على المتراس، كنت أنظر قدامي حزينا.

تندفع مدخنة القاطرات إلى الخلف قبل الموانئ. امتدت حبال غليظة تشد الزوارق التي تتأرجح في عرض النهر. لوحة خشبية طويلة تصل مركبا

باليابسة.

كان العامل، الذي يمشي فوقها يشب مع كل خطوة وكأنه فوق عارضة.

لا نية لديَّ للموت. غير أنه عادة ما يلذ لي استلهام الشفقة. فحالما يقترب أحد المارة أدس وجهي بين يديَّ وأنخر مثل شخص يبكي. وهم يبتعدون كان الناس يلتفتون برؤوسهم.

الاسبوع المنقضي كنت على وشك إلقاء نفسي في الماء لأبدو جديا.

كنت أتأمل النهر، أفكر في كنوز الغال القابعة في أعماقه، حينما رفعت مرفقي بشكل تلقائي إثر ضربة خفيفة على كتفي.

التفت، متحرجا ،خائفا .

وإذا به أحدهم يضع قبعة بحرية على رأسه ينتصب قبالتي، عقب لفافة تبغ بين شفتيه وصفيحة هوية صدئة في قبضته ولأنني لم انتبه لوقع خطاه وهو يقترب لوحت بصري نحو قدميه؛ كان ينتعل حذاء مطاطيا.

_ أعرف إنك تريد أن تموت، قال لي.

لم أجبه :فالصمت يجعل مني مُهما.

_ أعرف.

رفعت عينيَّ أعلى ما يمكن، لأجعلهما تبكيان.

_ نعم ؛أعرف.

وبما أن عينيَّ ،لم تذرفا دمعة واحدة. أغلقتهما. ساد صمت قليل، ثم همهمت قائلا:

_ فعلا؛ أحب أن أموت.

هبط الليل ؛أضاءت إبزيمات الغاز لوحدها. كانت السماء مضاءة من جهة واحدة.

اقترب مني ذلك المجهول وهمس في أذني:

_ أنا، أيضا أريد أن أموت.

اعتقدت في البدء ، إنه يمزح؛ غير أنني حين لمحت يديه ترتجفان خشيت أن يكون جادا فيدعوني للموت معه.

_ نعم، أريد أن أموت؛ كرر قائلا.

_ يكفي !

_ أريد أن أموت.

_ عليك ، أن تأمل في المستقبل.

أحب كلمات "الأمل في المستقبل" و"المستقبل" في صمت دماغي؛ لكن حالما أنطقها، تفقد معناها.

فكرت أن البحار سينفجر ضاحكا، غير أنه ظل مصرا على رأيه.

_ يجب أن تأمل.

_ لا... لا.

اندفعت أتحدث دون توقف لإثنائه عن فكرة الموت. الجسم مستقيم ،الرأس منحنية، يداه مصلوبتان،كان يشبه صاحب بنك مفلس.

من حسن الحظ، بدا وكأنه نسي أنني بدوري كنت أفكر في الانتحار. عملت على أن لا أذكره ذلك.

_ لننصرف ،قلت له على أمل ترك الأرصفة.

_ نعم ،لنذهب إلى حافة النهر.

كانت حجارة المتراس قد خدرت مرفقيَّ متذ قليل. أما الآن فالبرد نال من كل جسمي.

_ على الحافة؟ سألت.

_ نعم... لابد من الموت.

_ لقد أظلمت بشدة الآن. نعود غدا.

_ لا، اليوم.

سيكون من الجبن أن أفر. سوف يؤنبني ضميري طول بقية عمري. لا يجب ترك انسان ينتحر. كان من واجبي أن أنقذ هذا الرجل. لكن ببقائي معه سيعتقد أنني أريد أن انتحر غرقا فعلا ، وأن رفضت، سيكون قادرا أن يجعلني أغير رأي. من عادة البحارة سحب المراكب بطرف الحبل الغليظ. فمن السهل لهم سحب شخص من ذراعه.

_ من المستحسن العودة إلى المنزل الآن يا صديقي.

رفع اليائس رأسه. كان يلبس بزة عسكرية انقليزية بدون أزرار. من المؤكد أنه أعطاها لأحدهم .بانت تحت هذه البزة صدرية صوف بعنق مفتوح محدثة انتفاخات على مستوى البطن. برزت بعض الشعيرات عند أذنيه من السهل عدُّها. برز من أحد جيوبه جانب من قارورة بسدادة نظيفة.

أمسك بي من ذراعي ننزل درجات قليلة. أرسلت بصري نحو الأسفل فرأيت الحافة من بين الدرج الحديدية.

كنت أنزل ببطء شديد واضعا قدميَّ معا على درج واحدة مثل شخص له ساق خشبية.

كنت أمسك بالدرابزين المسطح، النحيل، لأؤجل الانتحار، مبديا خشيتي من الوقوعِ.

انغرزت أصابع البحار بين العضلة ذات الرأسين والعظم. حاولت إفلات ذراعي منه لكن دون جدوى.

تكدست أكوام من الرمال الحصباء، أدوات مدينة باريس، كوخ صغير، ونقالة مقيدة. لمحت من بعيد أسفل الجسر المظلم ولمحت سقوف الباصات وهي تمر فوق الرصيف. فجأة شعرت بتيارات هوائية باردة في ظهري.

_ حين نكون اثنين فأن الموت سهلا هتف جاري.

لم يعد عندي أدنى شك؛ لقد قرر هذا البحار الانتحار غرقا. وهو يعتقد إنني سأفعل مثله وأردت أن لا يشك في ذلك. فمن المستحسن أن لا يتهمك الآخرون بالخوف من الموت.

كنا على حافة السين كما لو أننا على حافة بركة ماء. لم يكن هناك متاريس. استغربت من وجودي القريب جدا من هذا النهر العظيم. من سيصدق أنني اقتربت بهذه الدرجة من السين الذي بسيل بين المنازل وتحت الجسور الحجرية.

عادة ما أجدني أتذكر رغما عني، أني لا أجيد السباحة حين أرى امتداد الماء قدامي.

_ لنمض أبعد من هنا، سيحملنا التيار بعيدا عن عقد الجسر. قال الغريب.

وافقت على الفور.

رج الترامواي حدبة الجسر. خشيت أن يسقط. ذلك ما يحدث لي وهو

نفس الرعب الذي يستبد بي في كل مرة أمرق فيها من تحت جسر. تصر الحصباء تحت أقدمنا كما لو أنها سكر مدقوق.

_ لكن لماذا تُصرُّ على الانتحار؟ سألته.

_ منذ ثلاثة أيام وأنا جائع. ليس لي أين أقضي الليل وأنام.

_ هناك مآوى.

_ صرت معروفا جدا عندهم. ما عادوا يرغبون فيَّ.

انعكاسات متعددة تنغرس في السين.

يتماوج سطح النهر كما لو أن هناك فقمات تحت الماء.

على الضفة الأخرى من الرصيف، وبسبب الظلال ، أخذت المنازل في النزول داخل النهر، كما في البندقية.

_ هيا، فلتتشجع. قال البحار. هي لحظة مشؤومة سنمر بها وبعدها الراحة الأبدية.

_ هل أنت متأكد؟

_ نعم... هيا... شيء من الشجاعة.

تثير فيَّ بده التي تضغط على ذراعي دائما من نفس المكان ذعرا شبيها بذلك الذي يسبب فيه سلطعون يقرص القدم دون أن تراه.

_ اسحب يدك عني، أولا.

لا أريد أن انتحر، وإذا كنت قررت أن أفعل ذلك، لا أريد أن يمسكني أي أحد. نحتاج لكل استقلاليتنا لننتحر. فالانتحار ليس الموت. وكما كنت انتظره تماما، أبعد الغريب يده عني.

سرى الهواء من جديد في صدري، وكأنه عوض أن يسحب يده من ذراعي، سحبها من حول عنقي.

انحنى البحار يجس حرارة الماء بإصبعين.

_ باردة قليلا. قال وهو يمسح إصبعيه.

_ لنعود إذا.

_ لا، يجب أن ننهي هذا الأمر.

كامل حياتي. أجدني في حالات مماثلة. والسبب في ذلك عزلتي. أبحث عمن يعتني بي، يحبني. وبما أنني لا أعرف أحدا، حاولت جذب انتباه الناس، في الشارع، بما أنه ليس هناك من مكان آخر يمكن الانتباه فيه إليَّ..

حالتي شبيهة بمتسول يغني فوق جسر عند منتصف الليل في قلب الشتاء.

لن يعطيه المارة شيئا، لأنهم يجدون في هذه الطريقة لطلب الصدقة مشهدا مسرحيا فاشلا. ونفس ما حدث لي، فالمارة الذين رأوني متكئا على المتراس، مكتئبا ومضطربا فكروا أنني أقوم بدور كوميدي. ومعهم الحق في ذلك. لكن ألا ترون في نفس الوقت إن إثارة انتباه الناس مدعاة للحزن، أكثر من التسول عند منتصف الليل على جسر أو الاتكاء على متراس.

انشغل البحار بملء جيوبه بالحصى، ليغرق بسرعة.

_ افعل مثلي. هتف فيَّ.

بدأ الوضع يحتدُّ. لم أكن أرغب في الحديث عن المال الذي معي، لكن الآن، لم يعد من الممكن السكوت. انتظرت لآخر لحظة عسى أن أمرا طارئا يحدث فجأة ويعفيني من القول أنني أملك أموالا.

_ هاي.... هاي.

التفت اليائس وقد كان منحنيا على كومة الرمل يقلبها بحثا عن الحصى.

_ لقد نجونا !

حدَّق فيَّ من دون أن يفهم أي شئ.

_ لقد انتبهت أنه بحوزتي بعض المال.

استقام الغريب ،تقدم خطوة. انسرب بعض الحصى من بين أصابعه يتساقط أرضا. التمعت عيناه ببريق ظهر في البؤبؤين.

_ لديك مال ؟

_ نعم... نعم.

_ أخرجه... أخرجه.

فتحت حافظة نقودي ،وكي لا يرى كل الأوراق، سحبت واحدة اندعكت وهي تبارح موضعها في الحافظة.

_ خذ، صديقي هذه الورقة فئة عشر فرنكات لك .

نظر البائس المسكين الى الورقة بحب ولهفة، التقطها مني، وظل لأكثر من دقيقة يدقق فيها ويلمسها بأصابعه.

دخلنا مطعما، أنا الأول.

_ فيم ترغب؟

صرت أخاطبه بشكل مألوف، فهو مدين لي بحياته ولأنه أفقر مني .

_ نفس الشئ الذي. ترغب فيه أنت

_ خمر أحمر، إذا؟

_ نعم.

جلبوا لنا خمرا في إبريق نظيف، خبز طري وأربع نقانق تفرقع في صحنينا.

كنت قد دفعت الحساب.

من عادتي أن أدفع الحساب مسبقا. فبهذا الشكل أكون مرتاح البال. أعرف أن الأموال المتبقية في حافظة النقود هي ملكي كلها.

ألقى البحار بنفسه على النقانق.

_ احذر ، كُلْ ببطء.

لم يُجبني ، شعرت أن قيمتي عنده تتضاءل.

حين انتهى سألته :

_ هل أكلت جيدا؟

مسح شاربيه بكف يده قبل أن يجيب "نعم".

وبما أنه لم يشكرني، أضفت :

_ هل كان الطعام جيدا؟

_ نعم.

_ هل شبعت؟

_ نعم.

انزعجت ،لأنه لم يُظهر لي أي اعتراف بالجميل.

لتذكيره بالهدية التي منحته إياها، سألته:

_ هل مازلت تحتفظ بالعشر فرنكات؟

_ نعم.

لقد كان فعلا غير مهذب. كنت، سأكون في مكانه مهذبا جدا مع الشخص الذي يحسن لي. من حسن حظه أنه تعثر بي أنا في طريقه. فأنا عطوف وامتلك سعة بال. لن يمنعني النكران من فعل الخير.

_ ولكن ما اسمك؟

_ نوفو... وأنت؟

هاهو يخاطبني الآن كما لو أننا معارف قديمة. لاحظت أنه لا يجب على المرء أن يتصرف بشكل أليف مع عديمي التربية.

فهؤلاء يخلطون بين الصداقة والألفة. ويتصورون بسرعة أنهم في نفس مستواك. تمّحي الفوارق بينكما. رغم أنني لم أسع من ناحيتي أن أكون أليفا مع شخص أعلى مني مستوى حتى ولو تعامل هو معي بشكل أليف. أعلم جيدا كم أن هذا التصرف يزعج الناس.

لن ألوم نوفو، ولكن كان عليه، أن يكون مهذبا معي. لقد كنت كذلك مع بيار.

ولأنني طيب جدا أجبت جاري:

_ فيكتور باطون.

احمرار كاحمرار الغلال الطازجه يصبغ وجنتيه البارزتين. صارت لحيته مجعدة أفضل من قبل. بقايا خبز تلتصق بصدريته.

رغم ،قلة تربيته، بدا لي نوفو خفيف الروح. ها أنا، أخيرا عثرت على

صديق بإمكاني أن أعول عليه. لن يتعلق بغيري. ولن تأخذني الغيرة عليه من أي أحد. وفي المقابل أنا فخور أنني قادر على التصرف أفضل منه. حين نخرج للتفسح معا سيمر عبر الشوارع التي تعجبني؛ وسيتوقف أمام فيترينات المحلات التي أحبها.

_ أين ستنام الليلة؟ سألته وأنا أعلم أن لا مكان له يأوي إليه.

_ لا أعلم.

_ سوف اعتني بك، لا تنشغل.

فكرت أولا أن أخصص له سريرا في غرفتي. غير أنني سرعان ما تخليت عن هذه الفكرة. فسوف تحدث لي مشاكل مع القائمة على المبنى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن سريري مقدس وكما جميع الناس، تتملكني الوساوس في غرفتي بصحبة شخص آخر. وإذا تتطلب الأمر أن أنام بغطاء واحد فلن يغمض لي جفن.

وسوف أكون ،محرجا عند الصباح حين أستفيق. من المستحسن إذا، أن استأجر له غرفة صغيرة في نزل. من الممكن أن أعثر له عن سقيفة بعشر فرنكات في الأسبوع.

خيرت الفكرة الأخيرة. ولم أكشف عنها للبحار. فضلت أن أتركه في خضم حيرته.

في تلك اللحظة ،شعرت، مجددا، أنني بالنسبة له العناية الإلهية.

لقد كان شاحبا. حين ينزعج الأغنياء يعرفون كيف يظهرون رباطة جأشهم. أما هو لا يعرف ذلك أنه فقير. كان في يده عرَّة شبيهة بيد النائم تتفسح فوقها ذبابة. كانت عيناه القلقتان تتحركان بدقة كما عينيْ زنجي.

ليس من الجيد الافتخار بإبقاء شخص تحت رحمتي. غير أن لي عذري، فإنما تركته يضنى بذلك الشكل، فذلك كي أعلمه بالخبر السعيد حالا. ما كنت سوف أتصرف بهذا الشكل لو لم أكن سأهتم به.

_هل تريد أن تشرب، يا صديقي؟

_ نعم.

طلبت قنينة خمر أخرى. ونحن ندق أقداحنا ببعضها، رأيت أن أظافري كانت أنظف من أظافره. لم أكن أعرف هل ذلك يبهجني أم يسوؤني.

كنت أسارع بملء الأقداح حالما تفرغ خشية أن يتقدمني نوفو. سأصاب بصدمة لو كان هو الساقي. بدا لي أنه غير معني بعلو شأني مقارنة به. يكفي مخاطبته لي بشكل أليف.

كنا منشرحيْن.دارت رأسي كما لو كنت على أرجوحة. ودون أفكار مسبقة شعرت أنني صرت طيبا جدا، فعلا طيب.

_ عليك أن لا تخشى من أي شيء، صديقي نوفو، سوف استأجر لك غرفة. سنكون أصدقاء إن شئت. لن نفترق أبدا.

بغتة ؛تغيرت ملامح البحار، ربما بسبب خصلة من شعره وقعت على صدغه. بدت التجاعيد التي انحفرت من المنخرين الى الشفتين أكثر عمقا.

_ طبعا... إن شئت... طبعا.

تصدمني هذه الأنت المباشرة حين يتوجه بكلامه لي، طبعا، أقل من المرة الأولى. اعترف أنني قد أخطأت، إذ يجعلني السكر أرغب في اقتسام كل ما أملكه مع الآخرين.

_ لنمض الآن ،قلت ذلك وأنا أنفض ذيل معطفي الذي التصقت به

بالنشارة.

رغم سُكري كنت أعرف أنني لم أدفع ثمن قنينة الخمر الأخيرة وتعمدت نسيان ذلك.

حتى لا يذكرني بالأمر، سحب نوفو الورقة النقدية التي أعطيتها إياه منذ حين.

_ كم الحساب؟ سأل صاحبَ المحل.

كنت انتظر هذه اللحظة بشكل لا واع لأ تدخل :

_لا.. لا أُترك الأمر، لي سأدفع أنا الحساب.

لم يقلِّل الهواء البارد في الخارج من حدَّة سُكْري. كان الشارع الذي يعجُّ بالمارَّة مُضَبَّبا كمن وضع على عينيه نظاراتي غيره يبصر بها. رؤوس الناس تشبه الأقنعة. تصطدم فنارات السيارات بأعلى كرشي. كما لو كنت وضعت القطن في أذنيَّ. إذ أن محركات السيارات بدت لي كما لو أنها خردة ساخنة بدون أي قيمة. كان الرصيف يتحرك تحت قدميَّ، كما لو أنني أزن جثتي. بدا لي المكان يشبه شارع أحلام بأنوار متدفقة من لا جهة.

كنت سعيدا جدا إلى درجة أنني رغبت في الصراخ.

لا أريد الآن أن يشاركني نوفو :أريد أن أهبه كل شيء. أدركت أن فقري ليس فظيعا. يا إلاهي؛ أيُّ بهجة هذه في أن تعطي كل ما تملكه وتنظر بيدين فارغتين، لمن جعلته سعيدا.

كنت سأهب نوفو كل سيء لكن فكرت ربما لا يستحق كل هذا مني.

مشينا لدقائق معا، حين لمعت في رأسي فكرة رجل سعيد. التفت إلى نوفو الذي كان خلفي.

_ هاي ،لنذهب عند فلورا!

_ فلورا؟

_ مكان يمكننا أن نستمتع فيه.

كان البحار السكران يترنح، كتف أعلى من الأخرى. يحاول أن يمشي على حافة الرصيف مثل بهلوان. مرفقه على بطنه، يده الأخرى عند رقبته، كان يبدو مثل شخص متنكّس. أما رأسه فكانت تهتز مثل كرة مشدودة إلى حبل قصير. طرف حزامه الفلانيل يتأرجح إلى حدود ركبتيه.

_ ألا ترى، نوفو، أننا هنا أفضل مما كنا بين ماءين.

لم يحدث لي إطلاقا أن كنت سعيدا بهذا الشكل. كان صديقي خلفي يتبعني. كنت إذا، أنا من يقوده. كانت الطريق سالكة أمامنا رغم الغوغاء. حين يتوجب أن نشق طريقا، كان هناك عون مرور يوقف حركة السيارات لنمر. وحين تغلق زحمة ما الرصيف فحالما نصل ينفتح لنا مسلك.

سلكنا شارعا خاليا. كان وميض مصابيح الإنارة يرتسم متحركا على المنازل إلى حدود الطابق الأول. تارة تسبقنا ظلالنا المتكسرة عند أعلى سيقاننا على الحيطان وطورا آخر تلحق بنا. كان هناك نافذة مضاءة أعلى أحد المنازل تعكس مربعها بشكل مكبر على الواجهة المقابلة.

استند من حين لأخر على حائط ما : ينفذ الجبس تحت أظافري.

أو أتفقد جيوبي الداخلية فرغم سُكري، كنت أفكر في حافظة نقودي. كنت أخشى أن ينتهز صديقي حالتي تلك ويسرقني.

رن صوت حالٍ ولمع رقم عند أحد الأبواب.

لقد وصلنا.

اعترف أنني لم أكن لأجرؤ على القدوم وحدي إلى هذا المكان. لكن يختلف الأمر حين أكون برفقة ما . فلن يهتم الناس بي أنا فقط.

ورغم ذلك أحسست بآلام في معدتي.

ها أنا ذا؛ سوف ألج إحدى تلك البيوت التي كنت أسمع عنها منذ طفولتي. سوف أدخلها كسيد وليس كتابع لعصابة كما هو الشأن في الجيش.

ضغطت على الجرس.

انفتح الباب بسرعة ،طبعا من أجل تجنب انتظار الحرفاء.

دخلنا.

انغلق الباب خلفنا وحده بواسطة آلة مخصصة.

نزعت قبعتي ،لأبدو بشكل طبيعي، ومشيت مباشرة إلى الأمام.

ـــ ليس من هناك؛ صاحت المرأة السمينة التي فتحت الباب.

كانت تضع جوارب بيضاء وقد تدلى من حزام حول خصرها كيس جلدي صغير مشدود بسلسلة معدنية و تلبس منديلا قصيرا من الدانتيل.

توقفت. أفسدت إشارتها عليَّ دخولي.

كنت أريد الظهور بمظهر من يعرف المكان.

أدخلتنا لقاعة تلفت الانتباه باتساعها مثل كل القاعات في عمق المنازل.

كان بعض الحرفاء ينظرون للاسطوانة تدور على الحاكي ،مبتهجين لأنهم حليقو الذقون . وكان هناك في الخلفية منصة عروض مهملة بديكور متنوع.

ـــ إنها فترة عشاء الآنسات، سوف ينزلن بعد قليل. ماذا تتناولان في انتظارهن سادتي؟

أعرف أن المشروبات في مثل هذه الأمكنة باهظة الثمن. ورغم ذلك طلبت قنينة خمر.

جلسنا.

لم أنزع معطفي فلقد كنت أجد صعوبة في لبسه، نظرا لبطانة أكمامه.

لم يعجبني تصرف نوفو. فلم يخلع قبعته. إضافة إلى أنه لم يكن يضع طوقا مزيفا. وعوض أن يتصرف بتواضع كما يتوجب حين لا نكون أغنياء، كانت حركاته استفزازية.

لكزته بمرفقي.

_ انزع قبعتك.

امتثل لما نصحته به وبانت فرضة حمراء تشق أعلى جبينه إلى صدغيه.

وبينما كان رفيقي يفرك عينيه بسبابته كنت أنظف أظافري بعود كبريت تحت الطاولة.

كان المكان غير مضاء، فكل المصابيح مطفأة كما لو كنا في قاعة سينما. بدا كما لو أن الزبائن مجبرون على البقاء هنا. الأيادي في الجيوب. تلتمع الآذان كما الأنوف. كان لفرو المقاعد انعكاسات النسيج المتآكل.

توقف الحاكي فجأة.

كان أحد الزبائن يتابع الاغنية بشفتيه. لا يبدو ذلك صعبا فالكثير من الناس يفعلون ذلك.

وأخيرا ؛ظهرت النسوة. أحصيتهن. كن سبعة.

كانت فساتينهن القصيرة تُشيع رائحة النقصان والبؤس والتي تشيعها

بيوت الحمام المزركشة بالأشياء المصطنعة والتي تتزيَّ بالوحوش الشمعية المعروضة في المتاحف المتنقلة.

لقد اتخذن ملامح دُمى من ورق شفاف براق،شاحب.والتمعت في أصابعهن خواتم.

وحين تقف فتاة جميلة وحدها بساقيها المثيرتين تجلب الانظار لكن عندما تلتحق ببقية النسوة تظهر عيوبهن.

جاءت امرأة تجلس حذونا وهي تنفجر قهقهات. أسنانها صفراء. عيناها مشقوقتان. تزداد قوة عطرها نفاذا حين تقوم بحركات.

كان نوفو ينظر إليها بإعجاب. لقد تغير تماما. صار يتحدث، يضحك، ولا يهتم بي إطلاقا.

قامت فجأة ،هذه المرأة تشد البحار من يديه وتسحبه خلفها.

بقيت وحدي. كان هناك ثلاثة أقداح وقارورتان على الطاولة.

دفعت حساب كل شيء وخرجت وروحي تشقى مرارة.

كان يمكن أن أفعل كل شيء لنوفو. أحببته هو الذي كان أضعف مني.

أعطيته عشر فرنكات وعوض أن يحتفظ بها من أجل الأكل، فضَّل تبذيرها في الاستمتاع.

لعله مات اليوم غريقا منتحرا، ولو أنه سمع كلامي، لأحبني، لو لم يسخر مني، لكنا اليوم أصدقاء.

كان بإمكاني يومها أن اتبع فتاة بكل متعة. لم أفعل ذلك لأني كنت أريد أن أستأجر له غرفة.

لم ينتبه أن في قلبي كنوزا من الحنان. لقد فضَّل أن يستمتع فقط.

افعل ما هو طيب... سيشكرونك بهذا الشكل.

ألهذه الدرجة من الصعوبة لن يفهمك أحد على هذه الأرض؟

السيد لاكاز

1

تجعلني المحطات اكتشف عالما، لم أكن أعرفه. الجو الذي يُغلفها أشد نفاذا.

أحب المحطات. وبالأخص محطة ليون. يجعلني البرج المربع الذي يهيمن عليها أفكر في أنقاض المدن الألمانية التي يمر بها القطار، أراها وأنا جالس عند بوابات عربات الحيوانات حين كنت جنديا. فمحطة ليون مازالت حديثة البناء.

أحب المحطات لأنها تحيا ليلا ونهارا. وإن كنت لا أنام فيها فذلك لإحساسي أنني لست وحدي.

تكشف لي المحطات عن الحياة الخصوصية للأثرياء. يتشابه هؤلاء في الشارع مع كل الناس. حين يغادرون باريس، أسمعهم يتحدثون يضحكون، يلقون الأوامر. أرى كيف يفترقون. يهمني هذا الأمر، أنا الفقير، بلا أصدقاء، ولا حقائب سفر. ومن المؤكد أن هؤلاء المسافرين لا يريدون وهم يحلون في مكان، أن يشاهدهم الآخرون كيف يرحلون وخاصة شخص مثلي .

شابات جميلات ينتظرن تسجيل أمتعتهن. أتأملهن وأتساءل ،لو كنَّ يلبسن مثل العاملات هل سيبدون أيضا جميلات.

أحب محطة ليون ،فمن خلفها يجري نهر السين بحافاته، بمرافعه التي تدور في الهواء، بمراكبه المتوقفة تشبه الجزيرات الصغيرة، ودخانه المتصاعد يتوقف في السماء.

كنت ذات يوم أتسكع ولا شيء يشغلني أُقضِّي به وقتي. قررت تمضية بعض الساعات في محطة ليون.

كان هناك أبواب بلا أقفال تتصارع مع الهواء. وخطاي تنزلق على الأرضية البلورية كما لو كنت في غابة التنُّوب. ملصقات إعلانية على شبابيك كشك. منعت التيارات الهوائية الناس من فتح جرائدهم. ورغم أنه نهار لكن شبابيك التذاكر مضاءة. هناك تآلف أسري بين موظفي السكك الحديدية وأعوان الأمن.

مشيت ،الرأس منخفضة ، وحين تعترضني امرأة جميلة، أتابعها بحزن شديد، لألمسها. آملا أن تعرف حاجتي إلى الحب.

عادة؛ حينما، أغادر غرفتي انتظر وقوع حدث ما يقلب لي حياتي. وأظل انتظر هذا الحدث إلى أن أعود. لهذا السبب أغادر غرفتي كل يوم.

_ هاي... أنت أيها السيد... هناك!

التفت فرأيت أحدهم على بعد أمتار مني واقفا في التيار الهوائي: يتموَّج معطفه كما لو كان واقفا على سطح باخرة. تتأرجح حقيبة من ذراعه اليمنى.

انتظرت ،غير متأكد أنه يقصدني. رأيته يشير إليَّ بسبابته كمن يضغط على زناد.

تلفت من حولي، لأتأكد أنه لا يقصد أحدا غيري، وبما أنه لم يكن هناك أي شخص في دائرتي، اقتربت.

كان هذا الغريب بدينا، برزت كرشه من سترته.تساوت شعيرات شاربيه الصهباء.

كنت منزعجا، ليس لأنه يعتبرني وسيطا، بل لأنه يبلبل مرارتي.

هناك الآن من يُحدثني! ها أنا ذا أشبه بقية الناس. وبسبب هذا الرجل ما عاد يجب أن اشتكي.

_ احمل هذه الحقيبة أيها الشجاع.

كان يتَّسم بكسل الناس الذين حلُّوا من السفر، ويرون من الطبيعي أن يندفع الآخرون نحوهم، وأن يفسحوا لهم الطريق.

ترددت في حمل الحقيبة :في الأثناء لمحت صبيَّة تنظر إلينا.

خاضعا؛ وجدتني في النهاية التقط الحقيبة وأمشي في أثر المسافر.

يتطاير ذيل معطفه من خلفه، لقد كان جالسا عليه دونما أدنى شك.

كنت أتوقف من حين لآخر لأرتاح وأنظر لأصابعي المنكسرة.

يتابع المسافر طريقه ولا يتوقف معي في نفس الوقت ينتظرني بعيدا، دون أن يتفوَّه بأي كلمة.

مشيت على طول الطريق ، عيناي منخفضتان، كنت أشعر بالخزي. الضغط الذي تمارسه الحقيبة على ساقي أنزل بنطلوني.

رغبت في أن أحكي حياتي لهذا الرجل :ربما كان سيهتم لي. كنت مصرا على ذلك لدرجة أنني سوف أغتاظ مني لو لم أحك له قصة حياتي.

من السهل لي في بعض الأحيان أن أبوح بآلامي؛ وفي أحيان أخرى، يستحيل ذلك، خاصة، حين أشرع في الحديث.

ذلك؛ لأنه ما أن استعد للحديث، ينشغل هذا المسافر بالبحث عن شيء ما في جيبه أو يركِّز بصره على جهة ما. كنت أخشى أن أزعج شخصا مهما بهذا القدر.

أحسست، أنه لكي يسمعني، فمن الضروري أن يكون متفرغا لي تماما.

حالما صرنا على الطريق، أقبلت تاكسي تقف حذونا.

فتحت باب السيارة بصعوبة أشد من فتح بوابة عربة قطار :لم أكن أعرف اتجاه المقبض.

سحب السائق ستارة النافذة وتأملنا من أعلى إلى الأسفل، مثل فارس.

كان على درجة من الهدوء فهمت من خلالها كم سوف تبدو اه جهودي لرفع الحقيبة غبية.

وبصوت عال بسبب شخير المحرك أعلم السيدُ السائق بالعنوان، ثم سحب قطعا نقدية من جيبه وقدم لي واحدة منها.

شعرت أنني بعد لحظات سوف احمرُّ. ليس تماما من أجل كرامتي ولكن لأجعلني مهما. وبحركة من يدي، رفضت.

_ ألا تريد ؟ سألني المسافر بلهجة احترام.

لقد أذهله هذا الرفض، رغم أنه طبيعي.

امتقع لون وجه السائق الذي يتابعنا ببصره وصار بنفسيجيا يشبه الدوالي دون أن يزيح يديه عن المقود.

_ أنت فقير، لماذا ترفض؟

كان بإمكاني وقتها أن أتمتم بأي شيء وأمضي. غير أني لزمت مكاني، آملا فيما لا أعرفه.

_ أنت تثير انتباهي، أيها الشجاع.

أخرج الغريب بطاقة زيارة، ومستندا إلى سقف العربة كتب : "العاشرة".

_ خذ... تعال، زرني غدا صباحا.

ارتمى داخل السيارة التي مضت تتأرجح كما لو أنها زورق.

واقفا على حافة الرصيف؛ مازالت البطاقة في يدي لا أعرف ماذا أقول.

استدارت سيارة التاكسي في الساحة وعاودت المرور بجانبي. رأيت السائق يلقي ببصره نحوي وسمعته يقول :"امش، أيها الخبيث، كان السيد الآخر قد أشعل سيجارة.

ابتعدت التاكسي ، ولا أعرف لأي سبب سجلت رقمها.

لم أرغب في أن يراني الآخرون أقرأ البطاقة. ابتعدت عن ذلك المكان،حتى لا يراني أحد.

وكان لا بد من مُضي شيء من الوقت لأقرأ البطاقة بعيدا عن الأنظار :

جان بيار لاكاز

صناعي

6، شارع لوردبيرون

تركت هذه البطاقة في داخلي انطباعا عميقا بسبب الاسمين المرطبتين بمطة، بسبب كلمة "صناعي"، وبسبب شارع لوردبيرون الذي لم يكن في الجهة التي أسكن بها.

نعم، سوف أذهب غدا عند العاشرة لزيارة هذا السيد.

لقد نجوتُ بما أن هناك من يهتم لي.

2

حالما عدت مساء ذلك اليوم؛ غسلت بالماء البارد جوربيَّ ومنديلي بالماء البارد.

خلال الليل، كنت أستفيق كل ربع ساعة، وفي كل مرة قبل نهاية حلم ما. كنت أفكر في الصناعي. تخيلت أن لديه بنتا سوف أتزوجها ؛ وحين يموت يترك لي ثروته.

حين فتحت عينيَّ عند الصباح، أدركت أن خيالي سرح بي بعيدا. فلا بد أن يكون السيد لاكاز شخصا عاديا مثله مثل بقية الناس.

وأنا أغسل وجهي، لخصت أحداث حياتي الهامة التي سوف أرويها له، ومن الممكن أن يهتم لها.

وانتهى الأمر بي إلى خيار، أنه من الأفضل أن تكون بائسا، فقيرا، وحيدا، فهناك أشياء من المستحسن عدم البوح بها.

أملك بدلتان :واحدة ألبسها كل يوم وأخرى سوداء اللون. فكرت أن ألبس هذه الأخيرة، البدلة السوداء؛ لا أعرف إن كان السيد لاكاز يرغب أن أبدو أمامه فقيرا، أو لابسا ثياب العيد.

وفي النهاية قررت أن ألبس البدلة السوداء. وبعدما بللت الفرشاة بريقي نظفت بها البقع على البدلة. منذ زمن أنظف هذه البقع. عند المساء ،تظهر مجددا. منه

غسلت يديَّ إلى المرفقين، كي لا ينتبه أحد لاتساخ جسدي.

بللت شعري كي تظهر الفرضة ملونة. لبست قميصا نظيفا ،برقبة مشدودة، لبسته مرتين في حياتي ثم وضعت ربطة العنق التي كانت عقدها الأقل انكماشا.

خرجت.

أرجأت وضع القبعة إلى حين يجف شعري. اكتشفت أنه ليس هناك ما هو أشد بشاعة من شعر مُجفَّف تحت قبعة.

حملت معي حافظة أوراقي بكل وثائقي.وضعت بطاقة لاكاز في جيب فارغ، لاستعمالها وقت الحاجة.

إنها الثامنة. من النادر ، أن أغادر غرفتي مبكرا في مثل هذا الوقت. فلم يتم كنس الدرج بعدُ. لمحت نشرية سباق الخيول على جرس باب الدكتور.

هذا الدكتور رجل طيب كما أغلب الناس المثقفين.

حين دقت التاسعة كنت بصدد التمشّي في لي شامب ايليزي. رؤية المنازل والأشجار وهي تبرز من خلال ضباب أصفر، تشبه صورة فوتوغرافية غير ثابتة. ورغم ذلك، كانت الشمس ساطعة جدا كما لو أنه منتصف النهار.

استرشدت عند عون مرور عن موقع شارع لوردبيرون.

أشار بيده اليه من تحت لفاعه.

أصغيت إليه ،وأنا أتساءل ما الذي سيقوله عني لو اتخذت اتجاها آخر.

بدا المنزل رقم 6 **شارع لورد بيرون** من الطراز الثري. ملفت للانتباه بسرعة. نوافذ بمربعات بلورية في الطابق السفلي. تنثني المصاريع الحديدية كما

لو أنها سواتر. انتصبت أعلى باب العربات قناعان منحوتان من الحجر:واحد تراجيدي وآخر كوميدي. امتد رصيفان صغيران على طول الممر للمترجلين وذلك لتسهيل خروج أو دخول سيارة.

انتبه البوَّاب بثيابه الأنيقة وهو يكنس الرصيف النظيف. أزعجني ذلك ،لأنه سيلاحظ مروري مرة ثانية حين أعود.

عبرت الطريق لأستطيع رؤية المنزل بشكل شمولي، وخشية أن يلحظني السيد لاكاز سارعت في خطاي متخذا سمة الناس المستمتعين بالمشي ومعتادين على رؤية الناس لهم.

وسرعان ما وجدتني في شارع خال ومزدان بالزهور، كما لو أنه حديقة عند الصباح.

لا أحد، يؤرجح مشاعل عند النوافذ. والسيارات تنعطف بحذر عند زوايا الأنهج. والخدم يلبسون سترات وقلنسوات عندما يخرجون. وأبواب العربات في كل مكان من الخشب الأسود اللماع.

يمر من حين لآخر تراموای فارغا متداعيا على سكة مُحدَّبة.

كانت مصابيح الإنارة العمومية أكبر من تلك التي في حينا.

قريبا، تدق العاشرة عدت أدراجي مستعملا الرصيف الآخر لمشاهدة المنزل من جهة أخرى.

وصلت ل 6 شارع لورد بيرون دقائق قبل الموعد. من عادتي التصرف للوصول قبل الموعد. هكذا أجد الوقت لأستعد.

دخلت. بعد أن مررت ثلاث أو أربع مرات من أمام الباب. كانت بطاقة السيد لاكاز في جيبي. لا أمسه كثيرا كي لا تتسخ. بشعة جدا بصمات

الأصابع على شيء أبيض نظيف. قطرات من العرق البارد تنزل من إبطيَّ وعلى طول جنبيَّ.

لمحت من خلال باب بلوري درجا مكسوة بسجادة.

عند البهو؛ توقف الخادم ينظر إلى نافذة.

ناديته، التفت.

_ السيد لاكاز؟سألت.

وكي أثبت أني أعرف السيد لاكاز، مددت له البطاقة. كنت مزهوا، فمن المؤكد أن الصناعي الثري لا يعطي بطاقته لأي كان. قلنسوة خشنة تغطي رأسه ومنفضة ريش عند حزام منديله.

_هل أنت السيد الذي من المفترض أن يأتي عند العاشرة؟

_ نعم، سيدي.

_ اصعد الدرج عند خلفية الساحة. الطابق الثاني.

وبما أنه لم يُرجع لي البطاقة ، طلبتها منه، لأني في حاجة إليها.

_ خذ... خذ...هاهي.

وأنا أعبر الساحة. شعرت أنه يتابعني بنظراته، وضايقني ذلك.

لا احتمل أن يروننني من ظهري حين أمشي. أفكر في شكل يدي، في كعبي، في ظهري..

صرت أتنفس بشكل أفضل، وأنا أصعد درج الخدمة.

كل طابق مضاء بمصباح، ولأنه نهار استطعت تَبيُّن الأسلاك الداخلية للمصابيح. حتى الدرج ،احتوت على أجراس كهربائية.

وأنا أصعد الدرج ،فكرت في الخادم، لا أعتقد أن السيد لاكاز حدَّثه عني. حتما ،أنه يغار مني، لذلك جعلني أصعد الدرج. لقد انتبه بعين الخادم إلى أنني فقير. وأن كانت عيون الخدم بهذه الفطنة، فهذا يؤكد أنهم يكرهون عملهم. لقد تخلوا عن استقلاليتهم مع الأثرياء فقط. فغريزة الحرية الموجودة في أعماق قلوبهم تسمح لهم بسرعة التمييز بين ثري وفقير، بين سيد لشخص ما، مثلهم.

ضغطت على الجرس، حين بلغت الطابق الثاني.

فتحت لي الباب خادمة. وقبل أن أنطق بأي كلمة، دعتني للدخول حذرة، من المؤكد أنها على علم بموعدي مع السيد لاكاز.

تبعتها. عبرنا مطبخا وصلتني منه رائحة القلي، ثم ممرا طويلا.

فجأة،وجدتني في غرفة انتظار.

_ انتظر.. سأعلم السيد.

سمعت بعدها، صوت الصناعي، عبر الجدار يقول:

_ ادخلي، هذا السيد الفقير.

اضطربت. لا يجب أن يعرف الخدم ما يفكر فيه أسيادهم بخصوصك. طبعا ،يعرف السيد لاكاز أنني سمعته.

لكن، بما أنني لا أعرف طبائع الأثرياء، لم اغتظ.

من الممكن أن السيد لاكاز منشغل بأمور أخرى أهم من أسئلة حب الذات.

ظهرت الخادمة مجددا. وبينما هي تقودني نحو المكتب غمغمت:

_ لا تخف... سيدي لاكاز طيب.

كنت محمرا. ويداي تعرقتا. مخبول بالذهول. تقدمت كقطعة خشب يحملها التيار إلى قلب الدوامة، نحو الباب المفتوح الغارق في ضوء النهار. قلت في نفسي :

"فليفعل بي ما يشاء"

دخلت.

انغلق الباب خلفي بدون أن يحدث أي صوت. من وسط الغرفة شاهدت الشارع؛ إذ، كانت هناك نافذتان كبيرتان تصلان إلى الأرضية. كنت مذهولا. بالغت في بلاهتي وذلك الشيء الوحيد الذي كنت أملكه. وكما لو كنت بردان أحرقتني حواف أذنيَّ.زاد جفاف فمي بما أنني كنت أتنفس بلا ريق. بعيون منفتحتين جدا وأهداب معلقة في الهواء، نظرت إلى السيد لاكاز.

كان شخصا آخر، مختلفا تماما. بدون قبعة ولا معطف. يلبس ثيابا سوداء. فرضة بيضاء تشق شعره إلى جزأين متساويين. تتحرك أذناه المسطحتان ،أحيانا، من الأسفل نحو الأعلى بسرعة.

في المحطة؛ لم يمارس أي سلطة عليَّ. فلقد تعودت مشاهدة أثرياء في الخارج. لكن، هنا، واقفا، ألمس بأطراف أصابعي مكتبه الفخم، لقد سحقني بعلوِّ مقامه :بكنزته ذات الأزرار المغلفة بالقماش بقميصه المنشَّى الذي لا يضايقه.

_ اجلس ،أيها الطيب.

لقد فهمت، لكن خجلي منعني من الانصياع له. كانت الأرائك منخفضة جدا.وجلوسي عليها يجعلني مساويا له، وهو ما يزعجني. لكن في قرارة

نفسي، شعرت أن عدم جلوسي، اطراء له.

_ ولكن اجلس... لا تخف. خطوت خطوات عديدة لأبلغ الأريكة التي أشار إليها بيده.

ما أن جلست غاص جسدي أكثر مما كنت انتظر. كانت ساقاي عاليتين وانزلق مرفقاي على المتّكئ المستدير.

حاولت جاهدا أن لا ألقي رقبتي على ظهر الأريكة :سوف يبدو ذلك قلة حياء مني. غير أن عنقي أرهقتني كما لو نرفع الرأس من السرير.

وضعت قبعتي على ركبتي، مازالت بها رائحة الشعر المبلل. ومسحت عيناي مستوة الطاولة مثلما يفعل المهندس

كان السيد لاكاز يحرك في يدها قاطعة أوراق. رأيت قبضة يده وكوعه في ردن القميص. تحت المكتب ، رأيته يضع ساقا على ساق، والساق التي لا تلمس الأرضية ترتجف. بدا نعل حذائه نظيفا.

_ لقد استدعيتك لزيارتي، أيها الطيب، لأني اهتم للفقراء.

لم تصدر الأريكة أي صوت حين غيرت في جلستي.

_ نعم ،أني اهتم للفقراء، طبعا، الفقراء الحقيقين. أمقت أولئك الذين يستغلون طيبة الآخر.

قام مستندا على مكتبه كما لو أنه يعاني من ألم في ساقه،وشرع يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يضع يديه خلف ظهره ويفرقع أصابعه من حين لآخر على طريقة راقصة إسبانية.

كانت رأسي عند مستوى كرشه. رفعت عينيَّ متضايقا لأراه أمامي.

_ أحب الفقراء ،أيها الطيب. أنهم بؤساء. لا أفوّت فرصة مساعدتهم كلما

أتيح لي ذلك. ولقد بدوت لي أنت في وضعية تستوجب الاهتمام.

_ أوه! سيدي.

انتصب فوق المدخنة حصانان مذهبان يشربان من حوض مذهب.

_ أعجبني لطفك كثيرا.

_ أوه ! سيدي.

بدأت استمتع بالحوار، حين انفتح الباب. وظهرت صبية ،ما أن لمحتني حتى تراجعت. شقراء جميلة ،تشبه تلك النساء على البطاقات البريدية الانقليزية وهن يقبلن خطم حصان.

_ طبعا، ادخلي يا جان.

قمت بصعوبة.

_ ابق جالسا... ابق جالسا... قال لي الصناعي.

شعرت بشيء من الإهانة من خلال هذه الحركة نحوي. فالسيد لاكاز أمرني بالبقاء جالسا في مكاني ليُفهمني أنه لا علاقة لي بالمقربين منه.

جلست الصبية إلى مكتبه تكتب شيئا ما. ثم أخذت تنتظر، ومن حين لآخر، تسترق نظرات نحوي.

غير أنها ما أن التقت نظراتنا؛ حتى أشاحت ببصرها عني.

شعرت أنني بالنسبة لها كائنا من عالم آخر. تتلصص بنظراتها نحوي لتعرف كيف هي هيئتي، كما لو أنها تتلصص على امرأة مستهترة، أو مجرم.

وانصرفت أخيرا وفي يدها ورقة. حين وصلت باب الخروج التفتت مجددا تلقي ببصرها نحوي.

_ هل كنت جنديا؟

_ نعم، سيدي.

كشفت له عن يدي المبتورة.

_ آه! أنت إذا جريح حرب.

_ نعم.

_ وهل تقبض منحة؟

_ نعم، سيدي، ثلاثمائة فرنك كل ثلاثة أشهر.

_ بنسبة 50٪ إذا.

_ نعم

_ وهل تشتغل؟

_ لا سيدي.

وسرعان ما أضفت :

_ لكنني بصدد البحث عن عمل.

يهمني أمرك. سوف اعتني بك. في انتظار ذلك. خذ.

سحب السيد لاكاز حافظة نقوده.

انتابتني قشعريرة و توهمت أن جلد دماغي يتغضَّن.

تُرى كم سوف يعطيني؟ ربما ألف فرنك؟

شرع يعدُّ الأوراق المالية المشدودة بدبوس، مثلما نتصفح كتابا. وأنا أتابع كل حركاته.

نزع الدبوس ومد لي ورقة من فئة مائة فرنك غير مدعوكة.

أخذتها. تضايقت من بقائها في يدي وفي نفس الوقت لم أجرؤ على وضعها

في جيبي.

_ هيا، خبئها، وخاصة حافظ عليها كي لا تضيع منك. اقتن بدلة مناسبات لائقة، فهذ البدلة التي تضعها لبست على مقاسك.

_ نعم ،سيدي.

_ وستأتي لزيارتي ببدلتك الجديدة.

وبينما هو يتحدث فكرت أنه ما كان يجب أقبل منه هذه الورقة النقدية بهذه السرعة. فموقفي هذا لا يتناسب مع موقفي في المحطة.

_ عد لزياتي

فتح الصناعي دفترا قدامه ثم أضاف:

_ تعال بعد غد في مثل هذا الوقت. سانتظرك.

دوَّن شيئا ما في دفتره، ثم سألني :

_ ولكن؛ مااسمك؟

_ باطون فيكتور.

بعد أن سجل اسمي وعنواني ضغط على الجرس.

قادتني الخادمة

_ هل كان طيبا معك؟ سألتني

_ نعم

_ هل طلب منك أن تعود لزيارته؟

_ نعم

_ هذا يعني أن حالتك تهمه.

3

كان الشارع في الخارج هادئا. الشمس غائبة لكن من الممكن الإحساس بها. والرصيف الذي تغمره الظلال حالما تصفو السماء، بارد.

مشيت بسرعة لأنفرد بنفسي ويمكنني التفكير بشكل أفضل.

لقد ترك السيد لاكاز في داخلي انطباعا جميلا ليس لأنه ثري ولكن لأنه صاحب عزيمة. لم تجري الأحداث كما تخيلتها البارحة. هكذا ،عادة هكذا يؤول الأمر معي. أعرف ومن الأفضل أن لا أجاري أهوائي ولا اقترح شيئا، إذ، غالبا ما تشطح بي مخيلتي بعيدا.

أزعجتني بعض ردود فعل الصناعي، ولكن هو في آخر الأمر لا يعرفني. لعلني ،أيضا،أزعجته.

فالأثرياء لا يشبهوننا في أي شيء. لا يلقون اهتماما بالغا بالتفاصيل الصغيرة.

إنها الحادية عشر. لم ترق لي فكرة العودة إلى غرفتي. فالآن أملك مالا. لماذا لا أقصد حي مونمارتر، أشرب وآكل جيدا؛ وأنسى عزلتي، حزني وفقري؟

بلغت الجوادَّ الخارجية لحي مونمارتر عند منتصف النهار. كنت جائعا وليشتد جوعي أكثر تقصدت مزيدا من التسكع.

شجيرات فتية ،بلا أوراق، بلا لحاء، مشدودة إلى أعمدة، مغروسة في حفر بلا غير محصنة بشباك، تتابع كل خمسين مترا. وبين كل شجيرة وأخرى انتصبت مصطبة كستنائية اللون، يفترض الجلوس عليها أن تظل مستقيما

قائم العمود الفقري. وهنا وهناك انتصب محل فيلغران خال، ومراحيض عمومية بلافتات ما قبل الحرب، ومن حين لآخر يعترضني غريب بصدد تأمل مخطط أو دليل إرشاد. كنت أتوقف أمام كل مطعم للإطلاع على لائحة الأكلات والمشروبات المُدوّنة في ورقة منسوخة معلقة على الفترينة.

دخلت أخيرا مطعما متواريا خلف صناديق انغرست فيها شجيرات صغيرة.

أفرشة الطاولات غطت سيقانها. كان المكان مزدحما ، مرايا كثيرة على الحيطان تنعكس على بعضها، قبعات ومعاطف معلقة، وقابضة على مقعد عال.

جلست إلى طاولة انتصب عليها توزع فوقها بانتظام، زيتية، لائحة الأكلات بين كأسين، دورق مضلعة وسلة خبز صغيرة في متناول يدي.

في الجهة المقابلة قدامي جلس أحدهم، ورغم مظهره المحترم فقد كان يرسم نساء عاريات، يستمتع برسم مثلث أسود في الوسط. بعيدا عنه سيدة تنظف أسنانها بإبرة؛ لن أجرؤ على القيام بما تفعله هذه السيدة.

ـ الحساب، يا روز صاح أحد الزبائن بصوت بدا لي غريبا، ربما لأنني لم أسمعه من قبل إطلاقا.

اقتربت الخادمة بمنديلها الأبيض، قلمها بين خصلات شعرها وكذلك مقص للعنب.

نظرت إليها ، ساقاها عاليتان تحت تنورتها. نهداها مرتخيتان. برز حلقها من تحت الصدار. حين انصرفت ،تحمل الصحون المتسخة، بدا لي جسدها أشد ليونة رقبتها أكثر حميمية، ذلك لأنني رأيتها من الخلف.

ها هي الآن، أخيرا، تعتني بي، جلبت لي تباعا قنينة خمر، قطعةسردين، شريحة لحم مصلي، عصيدة.

جلس زبون آخر حذوي. وهو ما لم يعجبني طلب زجاجة ماء فيشي. كتب اسمه على بطاقة.

دخل المحل متسول، لكن سرعان ما أطردته الخادمة بمنديلها مثلما تفعل نسوة المزارع وهن يطاردن البطات.

انتهيت من الأكل وقد مسحت صحني تماما ببقايا الخبز فلم يبق عليه غير آثار الدهون.

صحت ،مقلدا الزبون الذي قبلي:

_ الحساب، يا روزا.

دونت الخادمة أرقاما على ظهر لائحة الطعام، أمسكت الورقة المالية بأسنانها وهي ترجع لي القطع النقدية.

كما لو أنني سكران غادرت المكان ببلاهة رجل عار.

بعدما اقتنيت علبة سجائر هايغ لايف والتي رغم كنيتها هذه تباع بفرنك واحد. ثم دخلت حانة.

بخار لطيف ينفلت مصفِّرا من راووق معدني مطلي بالأبيض.

نادل ملتف في منديل أبيض يمسح بقطعة قماش آثار الكؤوس على الطاولات الصغيرة. تحدث الملاعق رنينا وهي تقع على حاملات الفناجين.

ولأنني أحب أن أرى بروفايلي، جلست إلى طاولة، بشكل يمكنني أن أرى في مرآة، مرآة أخرة تعكس صورتي.

أربعة نسوة تُدخنَّ عند طاولة في الجهة المقابلة، تلونت صدرياتهن بشتى الألوان. كان لواحدة منهن معطفا يكفي أن تنفخ عليه لتعرف أنه مصنوع من فروة ثعلب.

قامت هذه الأخيرة بمعطفها المحلول وكعبها العالي وتقدمت نحوي وسيجارتها بين إصبعيها. كانت تتقدم كمن يمشي على أطراف أصابعه.

جلست حذوي.

بدا فمها كما لو أنه مرسوم بدقة فائقة. تركت بودرة الأرز الكثير من الحبيبات حول منخريها لكنها أشاعت رائحة لطيفة. ظهر على شفتيها أثر عقب السيجارة.

وضعت ساقا على ساق بشكل وقح مثلما يفعل رجل. انتبهت إلى أن جواربها البيضاء كانت سوداء عند كعبها.

_ ماذا ستمنحني إذا، يا صديقي؟

في آخر الأمر، ولمرة يمكنني أن أنسى شجوني واستمتع.

_ ما تشائينه.

اقترب النادل الذي لم يستغرب من تصرفات المرأة منا.

_ هات لي بنيدكتين با ارنست.

_ حسنا ،وأنت، سيدي؟

_ شكرا. لاشيء... لقد أنهيت للتو قهوتي، وأشرت إلى فنجاني.

_ هيا. اشرب شيئا معي يا حبيبي.

_ حسنا... إن شئت... بنيدكتين.

حين انتهت جارتي من احتساء نبيذها، قامت من مكانها وبعد ان التقطت قبعتها من مكان جلوسها الأول، ترجتني أن انتظرها.

بقيت انتظرها إلى السادسة مساء. لم تعد. لقد سخرت مني.

أشرت للنادل ،وأنا أدفع الحساب شرحت له من دون أن يطلب مني ذلك، أن صداعا عنيفا ألمّ بي منعني من مغادرة المكان.

ثم خرجت وبقيت أحوم حول هذه الحانة لأكثر من نصف ساعة بعدها انصرفت لحالي.

هبط الليل والهواء ثقيل. الشوارع تثير في النفس الماكادام وكما لو أنه يتم إصلاحها.

استبد بي شعور سيء لمبارحة الطاولة بينما يستعد الناس للدخول إلى الحانات والسهر.

4

قرأت في لافتة معلقة عند واجهة إحدى المخابز ما يلي :

بدلة سوداء للبيع، بسبب وفاة صاحبها :بنطلون سترة، صدرة. اتصلوا بالداخل.

خشية ،أن يتم سحب العرض، أفقت صباح غد باكرا.

حين دخلت إلى المخبزة، سألني صاحب المحل الذي أراه كاملا بما أن مرآة خلفة تعكس ظهره عن حاجتي.

_ بخصوص البدلة ،سيدي.

_ حسنا.

نادى زوجته التي كانت واقفة في جهة أخرى تصفف قطع الخبز. ورغم أنها كانت بدينة فلقد وضعت حزاما حول خصرها.

اقتربت متسخة بالدقيق وعجينته إلى الركبتين، مثل عجلة دراجة هوائية.

_ هذا السيد يستفسر بخصوص البدلة، شرح لها الخباز.

ما أن شرعت السيدة في إرشادي دخل أحد الزبائن.

تركتني لتخدمه،بينما انشغل زوجها بوضع قطع نقدية في درح مفتوح في خزنة من رخام.

تكدست في هذا الدرج أوراق مالية بشكل كبير.

حتما، أن عَدَّها عند المساء، حين تغلق المخبزة، مدعاة لبهجة عارمة.

_ لكن ما اسم الشخص الذي يبيع هذه البدلة؟ سألت.

_ الأرملة جونو.

حين علمت أن هذا الشخص أرملة. شعرت بحيوية. أفضِّل التعامل مع النساء عوض الرجال.

_ أنها تقيم في 23.

_ شكرا.

حين خرجت ،التفت كانت هناك صبية بصدد تنظيف صناديق على البلاط.

لوحت بصري نحو الشرفات حيث المنزل 23 وعرفت أنني في حي بورجوازي.

طبطبت على حافظتي داخل جيبي، عادة ما أتوخى الحذر قبل اقتناء شيء ما، بل وأحيانا حتى إذا لم أكن سأشتري أي شيء.

عند مدخل البيت، كان هناك سجادة سميكة مبتلة لمسح القدمين و، بعيدا عن هناك في الظل رأيت بابا بلوريا لا ينفتح من الجهة التي ننتظر.

_ الخادمة !

وصلني صوت يصيح قادما من الدرج :

_ ماذا؟

_ مدام جونو، سألت بكل لياقة.

لم يصلني رد الخادمة.

سوف يمَّحي اهتمامي بها حالما أعرف الطابق حيث تقيم الأرملة.

_ مدام جونو ،كررت.

_ لأي حاجة؟

_ بخصوص البدلة.

_ الطابق الثاني ،الباب عند اليسار.

جدار الدرج يشبه الرخام. كان خشب الدرج مُلمَّعا.

عند الطابق الأول، قرأت: الدور السفلي، نحو الطابق الثاني :الطابق الأول.

ضغطت على زر الجرس الذي رن ،ليس خلف الجدار. لكن ،بعيدا ،في المبنى. ثم صوت انغلاق باب هو حتما باب مطبخ.

ظهر فجأة سيد بلا قبعة ولا ربطة عنق. أحسست أنني فاجأته. حين نظرت إليه تساءلت ما الذي كان يفعله قبل أن أضغط على الجرس.

_ بخصوص البدلة. قلت.

_ أي بدلة ؟

_ رأيت عند المخبزة....

_ في الطابق الثاني، سيدي. من المفروض أن الخادمة أعلمتك بذلك.

وأشار بسبابته نحو الأعلى.

_ أعلمتني الخادمة أنها في الطابق الثاني.

_ وهنا، أنت في الطابق الأول... اقرأ إذا.

اعتذرت وصعدت للطابق العلوي. لن أخطئ هذه المرة.

فعلا ،رأيت على البطاقة الشخصية لمدام جونو مشدودة على الباب عند اليسار.

ضغطت على الجرس. فتحت لي امرأة شاحبة، صففت شعرها بشكل جيد. يلتمع خاتم في سلاميات أحد أصابعها. يا للعجب، كم تلفت خاتم المرأة الشاحبة الانتباه.

_ بخصوص البدلة ،سيدتي.

_ آه ،ادخل... سيدي... ادخل.

أبهجني هذا الاستقبال. فقلة هم الذين يثقون فيَّ.

مسحت قدميَّ جيدا ،كما أفعل عادة حين أذهب لزيارة أحدهم، لأول مرة.

أدخلتني لقاعة أكل. لبثت واقفا في الوسط.

_ اجلس. سيدي.

_ شكرا... شكرا.

_ جئت إذا لشراء البدلة.

_ نعم،سيدتي.

_ آه ،لو تعلم يا سيدي، كم يؤلمني أن أفارق أشياء زوجي المسكين. لقد باغته الموت في زهرة العمر يا سيدي. لو يعلم أنني مضطرة لبيع ملابسه، لأعيش...

كم أحب، أن يسارري أحد. كم أحب من يقول لي أشياء سيئة عن الناس. فهذا يمنح حيوية للحوارات.

_ أي شيء أقسى من بيع أشياء عشت معه وصارت حميمية لك مثل بذور جمال جسدك.

_ فعلا... نتعلق بالذكريات، قلت وأنا أرفع يدي.

_ خاصة تلك الذكريات التي تعود بك لأشياء عديدة جميلة. آه !

لو أمكنني ،لاحتفظت بهذه البدلة. كان يليق بزوجي كثيرا. لزوجي المسكين نفس مقاسك. لعله بدين شيء ما أكثر منك. هو فعلا رجل متكامل. كان رئيس مكتب. لعلك قرأت ذلك على البطاقة الشخصية عند باب الدخول.

_ لم انتبه.

_ لقد تم محو العنوان لأننا طبعنا البطاقات قبل أن نسكن هنا. نعم تذكرني هذه البدلة بأشياء جميلة. لقد اشتريناها من ريامور. مازلت احتفظ بالفاتورة. سأعطيك إياها. كان ذلك ،ظهيرة أحد أيام الربيع. الناس تتأمل البراعم في الأشجار، والشمس تزين السماء. بعد شهر من ذلك، توفي زوجي. لم يلبس هذه البدلة إلا مرتين.

_ فقط؟

_ نعم، سيدي، بدلة بمائة وستين فرنكا سنة 1916.كان للمال في ذلك الوقت، قيمة أكثر من الآن. هي بدلة متكاملة ،البنطلون، الصدرية والسترة. انتظر سآتيك بها.

عادت مدام جونو بقد قليل تحمل في يديها البدلة ملفوفة في نسيج كتان.

وضعتها على الطاولة، نزعت الدبابيس، ثم حملت السترة، تبرزها لي من أمام ومن الخلف بطرف يديها الممدوتين.

تلمست القماش.

_ انظر ،إلى بطانتها سيدي.

فعلا ،كانت البدلة جديدة. ولا أثر لبقع عند الإبطين. كانت الأزرار والجيوب جيدة.

إنها لغصة حارقة بالنسبة لي ياسيدي مفارقة هذه الذخيرة. أخشي أن زوجي وهو في السما الآن يراني. لكن ،ما العمل، لست غنية. لا بد أن أعيش. سيغفر لي زوجي. انظر، هذان نحن.

مدت لي صورة فوتوغرافية مكبرة فيها الزوجان.

_ لقد كبَّرت هذه الصورة مرتين. فكلما بدا زوجا أوضح في الصورة بدا لي حيا معي هنا.

حدقت في الصورة مطولا. لم أتعرف إلى مدام جونو.

_ نعم سيدي ،هذان نحن سنة 1915 .بعدها بيوم سافرنا إلى الريف.

ثم بحلقت فيَّ من القدمين إلى الرأس.

_ كان له نفس مقاسك، لكن أعرض منك قليلا.

فكرت إنه لو كان زوجها بدينا، فلن تكون هذه الكسوة من مقاسي. لكنني لم أحدثها عن فكرتي تلك لما تقتضيه اللياقة.

_ ألم يكن زوجك جنديا؟

_ أوه سيدي، لا فكرة لديك عنه، فهو لم يكن قويا، وفعلا هو الذي كان من المفروض أن يبقى حيا لأنه لم يشارك في الحرب، مات بسبب مرض.

_ تلك هي الحياة. غمغمت

_ نعم ،هكذا يسير العالم.

_ ولكن ما سبب وفاته؟ سألت خائفا من أن يكون مرضه مُعْدٍ.

_ بسبب احتقان.

سألت الأرملة عن ثمن البدلة.

_ ليس باهظ الثمن خمس وسبعون فرنكا.

هل رأيت هذه التفصيلة وحركت يدها نصف دائرة معبرة عن الإعجاب.

_ تلمس القماش ،انه قماش انقليزي ما قبل الحرب. لن تجد مثيلا له في أكبر محلات بيع الملابس الجاهزة.

ما أن وصلت بوابة الخروج، سارعت في خطاي، متضايقا لأن الخادمة تعرف ان في الكيس الذي أحمله تحت إبطي بدلة.

سمعتها تناديتي.

التفت. لقد كانت الخادمة تنتظر خروجي هنا.

_ لقد اشتكى لي السيد في الطابق الأول. رغن أنني قلت لك أن مدام جونو في الطابق الثاني. عليك الانتباه فالمستأجرون يحملونني أنا مسؤولية كل ما يحدث.

حتى لا أثير أي مشكلة، انصرفت دون أن انفعل.

لن أذهب للأكل عند لوسي بسبب بدلتي الجديدة :سوف تستهزئ مني.

أكلت في أحد المطاعم الصغيرة أين يكتبون لائحة الطعام بالطبشور على لوحة سوداء، ثم، لكي املأ وقت فراغي شرعت في التسكع.

تضغط السترة عليَّ تحت الإبطين،تداعب الأكمام الطويلة يديَّ. يقولب

البنطلون فخذيً. لكن الأسود يليق بي.

أتوقف أمام واجهات المحلات لأراني. لاحظت أن صورتي المنعكسة على الفترينات أفضل منها على المرايا الحقيقية.

حين شعرت بأنني هضمت ما أكلته. دخلت مبنى حمامات. كنت أعرف أن هناك قسما للنساء وآخر للرجال.

سلمتني القابضة رقما. رغم أنني كنت الوحيد في المكان.

لم يمض وقت طويل على دخولي أشار لي أحد الخدم أن دوري قد حان.

دخلت حجرة الحمام. كان الباب لا يغلق بمفتاح من الداخل. وهو ما أزعجني طول وقت استحمامي خاصة حين تصلني أصوات خطى قادمة.

استمتعت كثيرا بالماء الساخن.

دلكت كل جسدي بالصابون واستمتعت برغوته.

وحالما بدأ الماء يبرد، نشفت وجهي أولا بمنشفة سرعان ما تبللت بدورها.

عند خروجي من مبني الحمامات شعرت بانتعاشة فائقة إلى درجة، أنني قررت العودة كلما كانت عندي أموال.

5

ما أن دقت العاشرة، كنت عند السيد لاكاز.

لبست بدلتي الجديدة، الجميلة، ولأول مرة أخرج بدون معطفي.

دخلت المكتب بأكثر ثقة من اليوم الأول.

كان الصناعي يتحدث مع ابنته. وبدا مستغربا حين لمحني.

_ اجلس ،قال لي، وأضاف، ساهتم بك بعد قليل.

نسي أنه تكلم معي أول أمس بتحفظ. ثم توجه بخطابه إلى الخادمة :

_ كم مرة نبهتك من قبل، ألاَّ تُدخلي عليَّ أيَّ إلا بعد استشارتي.

_ لن تستطيع الحضور هذا اليوم، إذا. قالت الصبية.

_ لا ،يا ابنتي.

_ وغدا ؟

_ ولكنك مشغولة!

_ لا ،سأغادر معهد الموسيقى عند الرابعة.

_ لن أستطيع، ما رأيك يوم السبت، إن شئت.

_ حسنا.

بعد أن قبلت أباها، انصرفت الفتاة. وكما المرة الأخرى ألقت ببصرها نحوي وهي تغلق الباب. أربكتني نظرتها ،رغم أنها قادمة من بعيد.

_ إذا، هل اشتريت بدلة، أيها الطيب.

_ نعم، سيدي.

_ ممتاز، قف.

نَفَّذت طلبه ،متضايقا شيئا ما من أنني بلا معطف.

_ استدر.

استدرت خافضا كتفيَّ قليلا.

_ أنه يناسبك جيدا. كما لو أنه مفصَّل لك خصيصا. بكم اشتريته؟

_ مائة فرنك.

_ ليس باهظا. يمكنني أن أرسلك الآن إلى مصنعي. مظهرك مقبول. سوف أكلف رئيس العمال أن يهتم بك.

سحب السيد لاكاز قلم حبر من مقلمته. خضَّها. وكتب بعض السطور على بطاقته الشخصية.

ابتعدت قليلا ،حتى لا يشك في أنني أتلصص على ما يكتبه.

_ خذ، هتف الصناعي وهو يقلب البطاقة ليتأكد من أن الحبر قد جف.

وضعت البطاقة في حافظة أوراقي بدون أن أقرأها وجلست آملا أن يهتم بي السيد لاكاز ويطرح عليَّ أسئلة.

فاليوم، وأنا أقل ذهولا، شعرت أنه بإمكاني أن أجيب بذكاء وبشكل منطلق، وأن أجعلني مهما.

_ إلى القاء... أيها الطيب با... بابا... باطون. هذا كل شيء بالنسبة لليوم. اذهب غدا صباحا، على الساعة السابعة، إلى مصنعي، من 97 إلى

125 شارع الفيكتوار في بيللان كور. تطلب السيد كاربو. سيمنحك عملا. وفي يوم إجازتك تعال لرؤيتي. اذهب الآن أيها الطيب، إلى اللقاء.

حزينا لانتهاء اللقاء بهذه السرعة، قمت.

_ إلى اللقاء، سيدي، شكرا جزيلا.

_ نعم، إلى اللقاء، غي يوم آخر.

خرجت متراجعا إلى الخلف، منحنيا وقبعتي مسطحة على صدري.

6

صباح غد، باكرا قصدت محطة الترامواي الأقرب مني.

كانت الريح تعصف بقوة إلى درجة أن باب غرفتي صفق وحده من دون أن أغلقه. نزلت قطرات غليظة من الماء مع منحدر يدي. فاضت السيول واندفعت من الأرصفة تغمر الطريق المعبدة، وفي كل مرة أعبر الشارع تغطس قدميَّ في بركة أحاول أن أتخطاها. تتدحرج المياه من المزاريب محدثة أصوات غرغرة، وتسيل على الأرض كما لو أن برميلا ملآنا انقلب. بللت أكمام سترتي قبضتي يديَّ. وبدت يداي مغطوستين في الماء ولا جدوى من تجفيفهما.

أقبل ترامواي نظيفا ،فارغا. كان للمصابيح التي تنيره حزن ضوء لم يتم إطفاؤه قبل النوم.

جلست في أحد الأركان. لم يتم تشغيل المدافئ الصغيرة بعد. جمَّد هواء بارد يتسرب من أحد الثقب يديَّ. والمحصلة ،الجالسة وسط الترامواي تتثاءب

_ الموت بيكي، هتفت.

رغم أن العربة فارغة.

انطلقنا مجددا. والأبواب تنفتح عند كل منعرج. تنطفئ الأضواء أحيانا للحظة.

تتلوى الشوارع من خلال الزجاج المبتل كما لو أن الهواء ساخن جدا.

_ غرينيل.

صعد عمال. رن صوت كامد في أذن سائق الترامواي.

تذكرت فراشي المبعثر،دافئ عند القدمين، فكرت في نافذتي المغلقة، وفي هذا الفجر الذي كنت أراه ينبلج من خلال جفنيَّ وأنا نائم.

في هذه اللحظة تضاء غرفة مدام لوكوان وتشرع هذه الأخيرة في الاغتسال.

_ جسر ميرابو.

جلس شخصان قبالتي.

شعرت بالسخط ،هناك مقاعد أخرى شاغرة. كانا يتحدثان وكما لو كنا في منتصف النهار.

_ شارع فرساي.

صعد عامل بجريدة مفتوحة ظهرت منها عناوين الأخبار الجديدة بشكل بارز.

طلع النهار وانطفأت فجأة المصابيح. تغير لون كل شيء. يمكن مشاهدة خيوط المطر، من فتحة النوافذ الرمادية.

_ شاردونلاغاش.

شعرت أني حزين ووحيد. فكل هؤلاء يعرفون أين يذهبون وكنت وحدي اتجه نحو المغامرة.

_ بواندي جور.

نزلت. خيط ماء غزير يتدفق من سطح الترامواي.

ساقاي ؛اللتان نال منها ارتجاج حركة الترامواي؛ متقاعستان.

وجهي متصلب. ساقي اليسرى متجمدة.

مضى الترامواي حاملا الرؤوس التي عرفتها ومقعدي الشاغر.

موظفا جمارك عند مرقبهما يستعدان لتبديل نوبتهما.

للذهاب إلى بيللانكور لا بد من مغادرة باريس.

مشيت في شارع طويل، بلا أرصفة، محاط بمساكن منخفضة.

لا يزال المطر يهطل بغزارة. وكلما قفزت من بركة ماء إلى أخرى يئز الوحل الملتصق بنعليَّ. خلف أحد الجدران شجرة تتمايل بقوة كما لو أن أحدهم يختبئ في أجمة. والريح، تعصف بأوراق الشجر. فقاعات كبيرة على سطح البرك المتناثرة، هنا وهناك.

سور كبير يحيط بمصنع السيد لاكاز. بمجرد رفع الرأس يمكن مشاهدة مداخن مختلفة الحجم ينطلق من فوهاتها دخان أسود كثيف الحجم.

_السيد كاربو. سألت البواب.

_ تقصد السيد هنري.

_ نعم.

أغلق الحارس مرقبه بعناية لم أر سببا وجيها لذلك فبعد أن أغلقه، حاول فتحه مجددا.

_ اتبعني ،قال لي دون أن يلتفت.

وحسب ما فهمت، فإنه يوصلني إلى السيد كاربو ليس مودة ولكن، لأن ذلك ما تستوجبه منه مهنته.

توقف أمام أحد المباني كانت تنبعث منه أصوات هدير المحركات.

شرع الحارس في التحادث مع أحد العملة. ثم تقدم مني ذلك العامل فجأة قائلا :

_ هل ترغب في مقابلة السيد هنري.

أدخلني لقاعة مؤثثة بالخشب الأبيض. تم تغليف جدرانها بملصقات صور ورسوم عجلات مطاطية هوائية.

سرعان ما قدم السيد كاربو.

عكس ما كنت أتصوره، كان شابا بشاربين خفيفين مثل تلك التي عند النساء. يضع نظارتين بلون اليود.

مددت له بطاقة السيد لاكاز التي كُتب عليها ما يلي :

عزيزي كاربو

أرسل إليك رجلا طيبا. شَغِّلّه.

_ آه ،جئت من قبل السيد لاكاز.

_ نعم ،سيدي.

_ حسنا، انتظر.

غاب وعاد بعد دقائق.

_ طيب، تبدأ العمل يوم الاثنين. قال

_ أوه، أشكرك، سيدي.

_ الأثنين ،الساعة السابعة.

_ شكرا، شكرا، هل تعلم أنني لا أستطيع استعمال يدي اليسرى. فأنا جريح حرب.

_ طبعا لن تحتاج إلى يدك اليسرى في الكتابة.

_ أعلم ،فقط أردت الإشارة لذلك.

_ نعم ،أفهم، يوم الأثنين، إذا.

7

ما أطول الأيام حين ليس لنا ما نفعله وخاصة حين لا نملك إلا فرنكات قليلة.

وبما أنني اعتدت على هذه البدلة التي شوه المطر قفاها ولطخ الوحل البنطلون، صار بإمكاني العودة للأكل عند لوسي.

في الجيش حين تتغيب عن تناول حصتك، فإنه يتم الاحتفاظ به، كذلك، يتم الأمر عند لوسي أيضا.

وهو ما جعلني أتناول وجبة من الطعام جيدة .

توقف المطر حين خرجت من المطعم.

و أنا اتجه نحو قصر العدالة، لمعت في رأسي فكرة؛ أربكتني كثيرا. توقفت عن التنفس. صار قلبي يدق بقوة في صدري. لم انتبه أن ساقيَّ غمرهما الماء.

فكرت ماذا لو انتظرت بنت السيد لاكاز عند مخرج معهد الموسيقى.

في الأول قاومت هذه النزوة، لكن دون جدوى .إذ، أن فكرة محادثة فتاة ثرية أغرتني كثيرا. لقاء منتظر من زمن في ظهيرة يوم ممطر. أنه المجهول ،ربما هو الحب. ليست هي الرغبة الجنسية ما دفعني لذلك. بالعكس، فحين أحب شخصا ما لا أفكر في الاستحواذ. فكلما تم إرجاء الأمر، أصبح أكثر متعة.

بروح مبتهجة تحيا ووحدها؛ تسكعت طويلا في الشوارع.

مطريات المارة المغلقة مازالت تلتمع. والأرصفة تعكس بياضها على الجدران.

رفرف علم، فوق مبنى معهد الموسيقى.

إنها الرابعة إلا الربع.

وأنا أتسكع في المكان كنت أفكر في كل شيء جميل في صورة ما أحبتني الآنسة لاكاز. لا يجب تصديق إنني أفكر في ثروتها. ولو وهبتني أموالا سأرفضها دونما حاجة إليها . وحين تزورني في غرفتي، فأنني استحق ذلك.

رغم ذلك ،لو كانت حبي هي الفقيرة كان سوف يُغمى عليها. وهو ما لن أفهمه.

فتح أحد العملة، فجأة، دفة الباب الثانية لمعهد الموسيقى.

لم يمض وقت طويل، حتى ظهرت الصبية مهرولة مثل مسافرة تريد أن تقدم تذكرتها الأولى.

تدفق الدم قويا في قبضتيَّ. شعرت أنه يغلى في شراييني.

وهي تمر من جانبي، نظرت لي الآنسة لاكاز. رأيت شفتيها تتحركان. لقد عرفتني. رغم ذلك ،لم تكلمني.

تبعتها. لقد كانت جميلة جدا بظفيرة شعرها على ظهرها وتنورتها القصيرة.

كنت أمشي بسرعة خلفها، مستعدا للتباطوء إن هي التفتت.

ثم ،سرعان ما تجاوزتها، نزعت قبعتي، وألقيت عليها التحية.

لم تجبني.

ها أنا ذا الآن قدامها وحتى تقترب مني، توقفت وأشعلت سيجارة.

قال لي أحدهم في الجيش لتقترب من امرأة ما، اطلب منها بكل رقة مرافقتها. وبينما أنا استعد لتطبيق هذه النصيحة. التفت.

كانت قد غابت.

8

غداة اليوم الموالي، استيقظت مذعورا.

كان أحدهم يطرق باب غرفتي بعنف شديد إلى درجة أن هذا الأخير أخذ يقرقع مثل صندوق مليء يقع.

في البداية، اعتقدت أنني أحلم. غير أن الطرق العنيف تواصل.

انتفضت من السرير. ومن شدة جزعي لم أشعر بالبرد.

_ من هناك؟ سألت بصوت خافت، كما لو أنني مازلت نائما.

_ أنا ،لاكاز.

أن يهتف باسمه شخص مثله بصوت عال فذلك لا يضايقه في أي شيء.

نظرت من خلال ثقب القفل، منتظرا أن أرى عينا بلا حاجب، ولا رموش.

لكن ما الذي جاء له الآن هنا عندي. لعله أراد التثبت من حقيقتي؛ أو سيعلمني بخبر سار.

زاد طرق الباب.

كان بإمكاني أن أفتح، غير أنني كنت نصف عاريا.

_ انتظر...لحظة... سيدي.

فتحت النافذة لتهوئة الغرفة. فتحتها دون إصدار أي ضجيج، كي لا ينتبه الصناعي لذلك.

لبست البنطلون. السترة ،بللت وجهي بطرف المنديل.

ثم ؛أغلقت النافذة بلطف.

فتحت الباب.

دخل السيد لاكاز، بدون أن ينزع قبعته.

عكازته الخيزران تصدم بالأثاث كلما تحرك هنا وهناك في الغرفة.

_ أنت شخص قذر؛ قال لي ذلك، وهو يقف قبالتي ينظر في عينيَّ.

ها هو؛ يعلم كل شئ، لقد خسرت كل شيء الآن. لا أعرف بماذا أرد تعمدت التجاهل.

_ تستحق العقاب. ألا تستحي من نفسك :تلاحق صبية صغيرة بظفائر شعرها على ظهرها.

غمغمت ،لا أعرف بماذا اعتذر.

_ هذا جزاء الإحسان... أعطيتك مالا... شغَّلتك في مصنعي... شكرا...

كان ثائرا إلى درجة أنني خفت أن يضربني. فلم أصدق أنني كنت سببا لهذا السخط الشديد.

_ نعم... هكذا تشكرني. انتبه وخذ حذرك. المرة القادمة أعلم بك البوليس. لست سوى نذلا بائسا.

وأخيرا ،خرج وهو يصفق الباب خلفه لدرجة أنه لم ينغلق.

سمعت وقع خطاه في الدرج، وحين عم السكون، خشيت أن يعود مجددا.

جلست على حافة السرير، أحدق في البدلة الجديدة عديمة الفائدة الآن، وأجول ببصري في فوضى الغرفة.

ألمَّ بي صداع عنيف. فكرت في حياتي البائسة، بلا أصدقاء، بلا مال. كنت أبحث عمن يحبني، أن أكون مثل الآخرين. وما أبحث عنه ليس شيئا عظيما.

ثم انفجرت فجأة باكيا.

انتبهت بعد قليل أنني أتعمد البكاء.

قمت ،وقد جفت الدموع على خديَّ.

انتابني ذلك الإحساس السيء حين يغسل المرء وجهه ولا ينشفه.

بلانش

1

حين يكون عندي بعض المال، أخرج للتفسح عند المساء، شارع الغيتي.

تنتشر في هذا الشارع، روائح المطبخ، والعطور.

هنا،المرطبات أقل ثمنا. تعد الأفران ثلاثة فطائر في نفس الوقت. ويضطر المترجل للنزول من الرصيف بسبب الجموع المزدحمة أمام المحلات. يوجد مركز للأمن وسط الشارع، ينتشر حذوه أعوان أمن بدون قبعات ودرجات هوائية مشدودة إلى الجدار. تنتشر أيضا ستوديوهات التصوير الفوتوغرافي وقد التصقت على فترياتها صور رؤوس مختلفة في أحجام متعددة تم عرضها في شكل شريط فيلم. يوجد أيضا وراق يبيع أغان مصحوبة بنوتاتها وبطاقات بريدية لمعالم باريس خلال الصيف.

ذات مساء، كنت استمتع بمشاهدة أفيش أحد الأفلام وهي تلتمع تحت عجين الغراء وقد رسم أحد السوقيين سيجارة بفم البطلة. وبينما أنا أرثي غباء مثل هؤلاء الناس بتصرفاتهم الخرقاء، حين وقع بصري على امرأة تحدق فيَّ، دونما سابق معرفة بيننا.

وحينما تأكدت ،أنها تلاحقني بعينيها راجعت بسرعة وبشكل آلي كل

الحركات التي قمت بها منذ قليل فلعلني لأطمئن، أنني لم أقم بأي فعل شائن من شأنه أن يلفت الأنظار.

لم يكن مظهر هذه المرأة لائقا، بسبب قدميها؛ لكن يكفي أن تنظر نحوي امرأة ما لأجد فيها سحرا ما.

وبما أنني خجول ، قمت بجهد كبير كي لا أخفض بصري. فلا يجب على الرجل أن يخفض بصره الأول.

كانت هذه المرأة محط نظر رجل آخر بلحية بيضاء وقبعة تخفي عينيه. لقد توقف فجأة وثقل جسده كله طورا يقع على ساقه وطورا آخر على ساقه اليمنى مثل طائر الماء طويل الساق.

خشية من أن أسبقه إليها، تقدم من الغريبة، نزع قبعته بحذر وغمغم كلمات لم أتبيَّنها.

لقد رأيته من خلف. فإما أنه يبتسم أو يتكلم فلقد كان شارباه يتحركان.

آه! لو كنت مكان هذه للمرأة، للطمته على خده.

لم تلطمه على خده، لكنها استدارت. أعاد السيد قبعته على رأسه متحيرا ومشى يقتفي في أثر المرأة، لم يتوقف إلا عندما عثرت هذه الأخيرة على موضع جيد، ثم غير بعيد عنها، انحنى يربط خيوط حذائه.

جاء دوري الآن، فاقتربت من الغريبة. بدا لي ذاك الرجل معتدا بنفسه، فلعله يعتقد أن تلك المرأة سوف تطرد عنها كل من يحاول التغزل بها.

_ عذرا ، آنسة.

ولم أنس أن أغمز بعينيِ.

_ لعل هذا السيد لم يكن مهذبا معك. لقد تجرأت على مكالمتك حتى لا يكرر مضايقته لك.

_ شكرا.

رفعت رأسها بالكاد، تظهر عيناها وأذناها من تحت القبعة. أنفها منتصب ،شفتاها شاحبتان، فحين تفتح فمها تظل الشفتان ملتصقتين عند الأطراف، وشامة بحجم ذبابة على ذقنها.

_ فعلا، فهؤلاء الشيوخ غير مهذبين.

_ أوه ! آنسة معك حق...وماذا قال لك؟

طرحت هذا السؤال الأخير ليس تطفلا ولكن لإطالة بهجة أن هذه المرأة بادلتني الحديث.

_ قال لي كلمة بذيئة.

أردت أن أعرف ماهي هذه الكلمة، غير أني لم أجرؤ على السؤال فكررت ما قالته:

_ كلمة فاجرة؟

_ نعم، لقد قال لي كلمة بذيئة.

لم أشكَّ في ذلك. عادة ما أتقاطع في الطريق مع هؤلاء الشيوخ وهم يركضون هنا وهناك تفوح منهم رائحة الخزامى. يخصصون عشرين فرنكا يوميا للنساء. فهم أحرار إلى العاشرة.

يفعلون ما يشاؤون ،بما أن حياتهم الشخصية لا تخص أحدا سواهم.

_ لنذهب من هنا، إن أردت يا سيدي.

_ نعم... نعم.

كنت أتلصص بنظراتي لقدمي رفيقتي لأعرف هل كانت تنتعل حذاء جيدا.

يا للغرابة، شعرت نحوها بذلك الإحساس الغريب الذي بتابني حين كنت جنديا بالقرب من مدني. تنورتها، فروة معطفها، قبعتها التي تضوع منها رائحة الحرية. ثيابها مجرد ثياب فقط. ومن المؤكد أنها لا تعرف شيئا عن ثيابها سوى أن تغطي جسدها.

كنت سأكون سعيدا جد لو لم أكن أخشى مفاجأة سيئة. فالنساء غريبات جدا. فبإمكان رفيقتي في أي لحظة تقول لي وداعا.

وبما أننا لا نعرف بعضنا، طال حديثنا حول هذا الشيخ.

وفي آخر الأمر، لم أجد ما أقوله وجدتني أسألها :

_ لعلك فنانة؟

_ مغنية.

_ مغنية ؟

_ نعم.

اعتقدت أنني بصحبة ممثلة مشهورة سألتها عن اسمها

_ ما اسمك؟

_بلانش دي ميرطا.

_ ميرطا ؟

_ نعم، بياء إغريقية.

_ طبعا هو اسمك الفني.

_ اسمي بلانش ،وأضفت إليه لقب ميرطا من ابتكاري.

فتشت في ذاكرتي، ربما مر بي هذا اللقب من قبل.

_ لا يجب أن نبتعد كثيرا سيدي، أقدم عرضي عند العاشرة وخمس دقائق في ترو موسكيتار. وإن شئت تنال كأس جعة في انتظاري.

تخيلت ،أنني أعيش مع هذه المرأة في شقة فاخرة. عندي ببجاما وخفَّان بنعلين نظيفين ينزلقان على السجادات.

_ هل تعيشين وحدك؟ سألتها حتى لا تكون عندي أوهام.

_ نعم سيدي

_ أنا أيضا.

فتحت حقيبتها اليدوية ورأت وجهها في مرإة التصقت بداخل الحقيبة ومررت فرشاة صغيرة على خديها وتحت. عينيها.

_ لنمض في هذا الشارع، لنأخذ راحتنا في الثرثرة.

مشينا في شارع أضاءته علب من الزجاج الأزرق ولافتات النزل، يظهر من حين لآخر رجل وامرأة سرعان ما يختفيان في أحد الزنقات.

يد بلانش التي تدفئ أصابعي ممدودة ورقيقة مثل ظهر حيوان أليف، تلامس قبعتها أذني. وفخذانا يتماسان.

كنت سعيدا ،رغم أن بعض ردود الفعل تُفسد عليَّ بهجتي.

ما الذي كانت ستفعله بلانش لو التقت الآن بصديقتها؟ هل

ستتركني؟أو، ماذا لو فجأة منعها ألم ما من المشي؟ أو ماذا لو هشمت فترينة أحد المحلات، أو مزقت تنورتها، أو تعثرت بأحد المارة؟

أحيانا، أتساءل إن لم أكن مخبولا. ها أنا ذا امتلك كل أسباب السعادة ما الداعي لهذه الوساوس الغبية التي تربكني.

وحين يمر بجانبنا أحد المارة. يدق قلبي بقوة. أعرف:لقد تمنيت لو كنت وحدي في العالم مع رفيقتي هذه.

سحبت يدي من يدها وألقيت بذراعي حول خصرها بلطف وببطء كي يكوني بإمكاني سحبها إن لم ترغب في ذلك.

غير أنها لم تعارض.

فكرت إذا، أن أقبلها، غير أنني لم أجرؤ على ذلك ونحن نمشي، خشية أن لا أجد الفم.

_ لنتوقف هنا ،بودي أن أقول شيئا ما.

صوتي مرتبك. أمسكت يدها ولثمتها بشفتيَّ.

_ ما الذي تريد أن تقوله، يا سيدي.

احتضنتها عندي بين ذراعيَّ. اصطدمت سيقاننا مثل لوحات خشب. حاذرت أن لا أفقد توازني.

ثم ،انحنيت عليها فجأة أقبلها. أزاحت قبعتي قبعتها.

غير أنها انشغلت بإعادته على عينيها.

مرتبكا،ذراعاي مفتوحتان، لم أكن أعرف هل أقبلها من جديد أم اعتذر.

مرت فتاة شابة وجميلة بمعطف من الفرو قريبا منا. فخجلت. احمر

وجهي. لأني أحسست أن بلانش غارت من نظرتي للفتاة.

لا أعرف سببا لقلة شهوة المرأة.

_ قريبا ،تدق العاشرة، لا بد لي من الذهاب لتقديم وصلتي، سيدي.

_ نعم... ولولكن...

_لكن؟

_ أريد أن أقبلك مرة أخرى، لكن بدون قبعة.

انهمكنا في قبلة مطولة بلا قبعات. لم أر جيدا عيني بلانش.

ثم، أبعدتني عنها بلطف

_ فلنذهب، لا يجب أن أصل متأخرة.

ملتصقان معا كما لو كنا تحت مطرية، عدنا أدراجنا.

تزدحم حانة ترو موسكيتار بروادها في مثل هذه الساعة.

على منصة بيضاء يؤدي مهرج بعض أدواره. افيشات معلقة هنا وهناك فيها صور دي مارطا.

وفي الوقت الذي التحقت فيه بلانش بالكواليس اتخذت لي مقعدا بين الجمهور الذي حدق فيَّ بإعجاب معتقدا أنني عشيق المغنية.

عقب المهرج ظهر مغني تينر بروطاني وعزف عازف البيانو بشعره الطويل اغنية بايمبولايز.

أخذ متشرد حذوي يردد الأغنية بصوت عال وحده. برز نصف وشم في رسغ يده. بعيدا عنا ، امرأة تلحس أصابعها من بقايا نبيذ.

ثم، ظهرت بلانش على المنصة. فكرت أنها تبحث عني بعينيها غير أنها لم

تفعل.

أدت ثلاث أغنيات، ثم انحنت للجمهور وهي تشد تنورتها.

التحقت بي بعد دقائق.

_ لنخرج الآن.

_ هل تقيمين بعيدا عن هنا، آنسة؟

_ نعم، شارع لافايات، في مودرن أوتيل.

2

مشينا لأكثر من ساعة كي نصل الأوتيل.

أحد الفرَّاشين،ساقاه ملمومتان كما لو أنهما مشدودتان لبعضهما بعض؛ غاطسا في أريكة ينعس.

لمحتني من بعيد أمسي في مرآة، وكي لا يغيب عني انعكاس صورتي على تلك المرآة، ابتعدت عن السجادة.

الدرج مضاءة. وسجادة مشدودة بقضبان صغيرة من النحاس.

غرفة بلانش غارقة في فوضى عارمة. منديل ملقى يجف فوق مولد الحرارة، قميص يتأرجح من على مفتاح الخزانة. وسط السقف حلقة لا تتدلى.

لم أكن أعرف ما الذي سأفعله بين هذه الحيطان الأربعة لم أجلس وبقيت أذرع الغرفة جيئة وذهابا وكلما مررت حذو الخزانة تهتز الكرتونات المكدسة فيها بشكل مبعثر.

لم تتمكن بلانش من جذب الستائر :فالحلقات التي تشدها عالية جدا ولا تنزلق على القضبان. وبعد عدة محاولات نجحت في ذلك.

ثم؛ ومن دون أن تتحرج مني شرعت في نزع ثيابها :وهي في قميصها الداخلي، كانت شخصا آخر مختلفا تماما.

نظفت أذنيها بالجانب المقوّس لمشبك الشعر.واغتسلت بشكل غريب.

منذ خلعت نعليها ، وهي تمشي حافية بخطوات أقصر.

وانزلقت ،فجأة ،تحت الغطاء على الفراش بدون أن تمسح قدميها.

استيقظت عند أول الصباح. ينسرب داخل الغرفة ضوء قليل من الطابق الأرضي. سمعت قطرات من المطر تقع على بلور النافذة.

إنها تمطر.

بلانش غارقة في النوم. إنها تحتل كامل الفراش تقريبا.

يلتمع منخاراها وجبهتها. فمها نصف مفتوح وشفتاها متباعدتان بدتا كما لو أنهما لا تنتميان لنفس الفم.

حزينا لمغادرة فراشي. تمنيت لو قمت كعادتي بتكاسل. ألبس ثيابي وأغادر ،إلى الخارج، حيث المطر، أغادر هذه الغرفة التي مازالت تتنفس لهاثنا والشراشف المنغلقة علينا.

بدأ النهار يبزغ. انتبهت لملابس ملقاة على كرسي وأصص أزهار غير مستعملة فوق المدخنة.

فجأة ، ارتعشت جفون بلانش، لتكشف عن عينين ميتتين. غمغمت ببعض الكلمات ،حركت ساقيها، ثم، سحبت بشكل تلقائي كل الأغطية إليها.

غادرت السرير، شعري غير مرتب، والقميص الواسع عند قدميَّ.

غسلت وجهي بالماء البارد، دون صابون، شبه نائم، وقفت عند النافذة.

شاهدت شارعا لا أعرفه، حافلات كهربائية، مطريات، وحروف كبيرة مذهبة عند إحدى الشرفات.

السماء رمادية ،وما أن أرفع رأسي تبلل جبيني قطرات من المطر.

_ عزيزي ، هل ستنصرف؟

_ نعم.

لبست ثيابي على عجل.

_ بلانش ، متى يمكن أن أراك مجددا؟

_ لا أعرف.

_ غدا؟

_ إن شئت.

قبلت عشيقتي على جبينها وبارحت المكان.

وأنا أنزل الدرج شممت رائحة الشكولاطة. لمحت طبقا ملقى على الأرض.

في أقل من دقيقة كنت بالخارج.

لم أحاول بعدها إطلاقا ملاقاة بلانش.

صديق آخر

أُفَضِّل الحدائق الأنقليزية على تلك الفرنسية. ليس لأني أنفر من التنظيم والهارمونية، وليس لأن تقليد الطبيعة يستهويني، لأني فقط، أحب أن لا أعرف أين أمشي وفي أي مكان أتواجد. عجيبة، هي الحدائق الأنقليزية، ففيها شلالات وممرات غامضة. ورغم أنه يمكن العودة بسرعة إلى نقطة الانطلاق، لكن، يستولي على المتفسح وهم التيه والضياع. وخاصة ، أنه لا وجود لأرصفة ممتدة حيث ينتشر الناس ويشاهدونك تعبر.

كنت أتفسح ذات يوم حار من أيام شهر أوت. ورغم أنه منتصف النهار غير أن الشمس لم تكن في كبد السماء ومن دون أن أحرك رأسي كان يكفي أن أرفع عينيَّ قليلا لأراها.

إنها ،ساعات الصباح الأولى، أجمل أوقات النهار. فكل تلك الأفكار الفياضة أو شديدة البؤس التي تسكنني خلال المساء تمَّحي من ذهني. ويجعل مني الليل كائنا جديدا، نظيفا.

ومنتصف النهار بالنسبة لي، أقصى حدود البهجة. في ذلك اليوم، كنت سعيدا جدا. استمع لزقزقة العصافير من حولي. لم أفهم كيف يمكن لهذه الزقزقات أن تكون رائعة عند البعض . فليس في هذه التغريدات ما يواسيني إطلاقا.

كنت أتقدم ببطء في ممرمُظلَّل. أبحث عن مقعد بعيد عن الأنظار لكن في قلب الحديقة، حتى يكون كل ما حولي من أشجار وعشب

يكون بنفس العمق في بعدي عن المدينة وضوضائها.

السماء صافية. ومن حين لآخر يهب نسيم قليل. بعض الحشرات الصغيرة التي لا تخشى تلك التي أكبر منها من جنسها تقفز هنا وهناك على العشب. من هذه الطبيعة المحمية لم تكن تنبثق الحياة المتدفقة، أزيز الحقول والخشب. فالتراب الذي يدوسه المارة متيبس يرد الصدى. فهو لا بمتص وقع الخطى عليه كما تراب الأرياف الطري.

أحب أن أعطي العصافير الخبز. وأفعل هذا لأنه علامة روح نبيلة وكريمة. رغم ،أنني أعترف أن لا شيء يجذبني إليها. وكما هي نظرتي نحو الناس، فاستقلاليتهم ولطافتهم عزيزة عندي، لكن ليس لدرجة الابتهاج الشديد بإطعامها فتات الخبز.

حالما عثرت على المقعد الذي أبحث عنه، جلست، وسحبت من جيبي قطعة خبز جلبتها معي.

انتشرت مجموعة من العصافير قدامي، وغير بعيد عني، كان هناك رجل ينظر إليَّ. سأكون كاذبا، إن قلت، كعادة بعض الناس، أنني أحسست بنظراته مصوبة نحوي. فلم يحدث إطلاقا أن أحسست بنظرة ما نحوي. غير أنني متأكد ،أن امرأة في مكاني ذاك وفي ذلك اليوم، وفي الوضعية التي كنت عليها، تنظر لهذا الغريب كما أنظر أنا الآن له بطرف عيني من دون أن التفت سوف تقول متأكدة أنها أحست بهذه النظرة صوبها.

لم أتوقف عن إلقاء الفتات. ألقي بها قريبا جدا مني. بما يبعث في داخلي

ارتياحا لرؤية العصافير تقترب مني دون خشية. فالأمان الذي تشعر به إزائي يبهجني، رغم أنها، هذه العصافير يمكنها أن تأمن أي كان.

وبما أن ذلك الغريب لم يتوقف عن النظر إليَّ، شرعت في محادثة العصافير. بل وأعطيت لكل عصفور اسما. رغبت لو أن أحد العصافير حط على يدي ينقر فتات الخبز من على كفها. غير أن هذه العصافير تعرف على ما يبدو أنني من الزوار المعتادين لهذه الحديقة، فلا أحد اقترب مني.

متظاهرا بالاهتمام الشديد بما أفعله، لم أتوقف عن التفكير في الرجل الذي ينظر إليَّ. :" ما أغرب بعض الناس. ها هو ذا أحد الفقراء، بائس يتقاسم مع العصافير ما يملكه. لا بد أنه يملك قلبا كبيرا. لم أر في حياتي فقيرا مثل هذا الشخص."

لا شك أنه كان يحدث نفسه بهذا الكلام. كنت شديد الوعي بكِبَرِ روحي. وبما ،أنه لم يتبق لي غير القليل من الخبز، قسمته إلى قطع صغيرة جدا، وأصبح عندي فتات كثير. قام الغريب من مكانه، ودفع بخطاه نحوي. طارت العصافير. التفت نحوه ،وعلى وجهي بعض العتاب الخفيف.

_ لا تؤاخذني سيدي، ستعود العصافير. قال ذلك بصوت خافت.

وقتها ؛ استطعت أن أتثبت من ملامح هذا الغريب.

رجل طاعن في السن شيئا ما، ربع القوام، بهندام جيد. يضع نظارتين. يلبس حذاء بقصبة مطاطية. كان ينظر إليَّ بطيبة بالغة إلى درجة أنني اعتقدت أن بلور نظارتيه يغطيهما البخار.

_ هل من عادتك القدوم إلى هنا؟

_ نعم، سيدي.

لأول مرة في حياتي، لا أشعر بأي ضيق من التعرف إلى شخص ما. كان مزاجي رائقا جدا، ويمكنني التحدث مع أي كان، بدون أي حرج.

_ من الواضح أنك تحب الحيوانات؟

_ كثيرا.

قمت من مكاني وشرعت بإلقاء ما تبقى عندي من فتات خبز بشكل عشوائي، في الجهة التي كانت قد حطت فيها العصافير.

_ أنت صاحب روح طيبة. قال بعد صمت قليل.

لم أجبه. رغم أن ما قاله لا يجب أن يظل معلقا بين صمتين. فلم يحدث أن سمعت مديحا لي من قبل. لم يقل لي أحد ما تعود الناس أن يسمعوه من كلام جميل. ملأتني كلماته بالبهجة. بل لقد شعرت برغبة في البكاء.

لم أتوقف عن إلقاء بقايا الفتات. لا شك أن هذا الغريب كانت له حساسية زائدة. كان يبدو عليه الضيق حين أنظر إليه، أنظر في عينيه فبخفض رأسه أو يلتفت إلى جهة أخرى.

_ ها هي، قال وهو يشير بيده إلى العصافير ولكي أكف عن النظر إليه؛ هاهي تعود.

_ لكن لم يبق عندي خبز.

هنا، لا بد أن اعترف . فحين قلت :

" لكن لم يبق عندي خبز."كان في صوتي لهجة حادة فيها شيء من القسوة. لكل واحد منا نقطة ضعفه. لا أحد يدَّعي الكمال. قلت

" لكن لم يبق عندي خبز." كما لو أنني أعاتب لماذا ليس عنده خبز، وكما

لو أنه كان يعرف أنني سوف أحتاج إليه، وكما لو أنني أريده أن يشتري لي خبزا لأواصل تقديمه للعصافير.

من حسن الحظ؛ أنني ذكي. فبسرعة تداركت وقلت بصوت طبيعي:

_ لقد أخذت العصافير كفايتها اليوم.

_ هل تعتقد ذلك؟

كان الغريب على درجة عالية من الطيبة لم ينتبه لسوء مزاجي.

غادرنا المكان وابتعدنا عنه. كان يمشي بخطى متثاقلة. وكنت أجاريه في مشيته. من حين لآخر يتوقف لمشاهدة السماء.

_ ما أجمل هذا اليوم!

داهمني فرح عارم. شعرت تجاه هذا الغريب بحب لاهتمامه بالتفاصيل الصغيرة. كان يهتم بألف لاشيء. هو إذا؛ يشبهني.

فالذي لا يعرفني جيدا، يعتقد من الوهلة الأولى أنني صعب المراس، وهو ما يشقيني ويؤلمني. لا ،لست أطلب إلا القليل من الصداقة. أعرف جيدا أن من علامات الحكمة ألا تطلب من الآخرين ما ليس بإمكانهم تقديمه. يجب التعامل معهم كما هم على طبائعهم. أعرف هذا. فأنا حكيم. أتعامل مع الآخرين كما هم. ورغم ذلك فلا أفلح في الصداقة.

كنت أمشي مع الغريب بخطى غير ثابتة، خطى مستعدة للإسراع أو التباطؤ، مثل خطى الفتيات التي تعرفت للتو على أحد المارة.

كنت استمع لكل الأصوات. رغم أن الحديقة كانت خالية. يعبر خيال شخص ما من حين لآخر في جهة ما.

واصل الغريب، مشيته برأس منخفضة، من حين لآخر ألقي نظرة عليه. لم نكن نعرف أين نمضي.

جلس أحد البؤساء على مقعد يلتهم قطعة خبز وبعض اللحم. كثيرا ،ما أتساءل أين يقضي هؤلاء البؤساء ليلهم. رأيت الغريب ينظر إليه بشفقة. أوه ! لا يجب أن يفكر أحد أنني غرت من تلك النظرة. بالعكس ، شعرت ببهجة كبيرة ، أن هناك ناسا على هذه الأرض تتعاطف مع بؤس الآخرين. لا لم أشعر بالغيرة. لا أغار من المتسولين الحقيقين، من أولئك الذين لا يستغربون من أنهم فقراء، ولا يرغبون في أي شيء، بل لا ينتبهون إلى من يشفق عليهم. لم يكن هذا الجالس على المقعد يلتهم قطعة خبز محتالا.

كان فقيرا، فقيرا من نوع الفقراء الذين أحبهم.

أما هذا الغريب، فهو بمثابة أبي. شعرت في مشيته، في صمته قوة تحميني. وأنا صغير حين أخرج مع أبي لم أشعر بهذا الإحساس. يتملكني خوف من أن يضرب أحدهم أبي.

يلتفت الغريب نحوي من حين لآخر، يتصفحني وهو بحرك رأسه. وأنا الغبي لا أعرف كيف أنظر إليه. هل أنظر إليه برقة، سوف يبدو ذلك مدعاة للسخرية بما أنه كان أقوى مني بكثير؛ أنظر إليه ببرودة، بقلة احترام، دون تقدير؛ بتعال .

غير أنني عملت على تجنب خزرته التي كانت تتفحص ثيابي المهترئة، وحذائي الكبير جدا، وما يحيط برقبتي من شيء قاس.

بعد قليل ؛سنجاوز عتبة باب الخروج من الحديقة، وسوف يتوجب أن أتكلم. لكم تمنيت لو مازلنا وسط الحديقة.

توقفنا. حذو الباب الحديدي المشبك، انتصب مرقب للحراسة مطلي باللون الأصفر مثل لون المقاعد الحديدية.

هي النهاية إذا! سوف نفترق. شعرت بقشعريرة. من حسن الحظ، أن الغريب لم يرني في تلك اللحظة. الطقس حار جدا. حين أخفض عيني أشعر بجفنيَّ ندية.

رغم أن العرق يتصبب من وجه الغريب، غيرأنه لم يعمد إلى تجفيفه. أعجبني هذا الشرود. واعتبرته تهيبا منه وودًّا عميقا منه نحوي.

لأول من سنوات عديدة، أشعر أني عثرت على صديق حقيقي!

سحب الغريب منديلا من جيبه، منديلا مطويا، وقبل أن ينشف العرق، سألني:

_ أين تتناول طعامك؟

_ لا أعرف، سيدي.

شعرت أن هناك إجابة سوف تشجعني، غير أن ذهني المتبلد تثاقل في رد الفعل، فلم أجد ما أقول غير ذلك.

_ هل ترغب في تناول وجبة الغداء معي؟

قليلة جدا، وجبة غداء، فسريعا ما ستنتهي.و رغم ذلك لن تدركوا كم أدخلت على نفسي السرور هذه الدعوة.

للأسف، لا أجرؤ على قبول كل ما يُمنح لي. من عادتي أن أخشى قبول أي شيء بسرعة.

_ لا... شكرا... سوف أضايقك... غمغمت.

_ تعال... بما أنني أستضيفك... هيا...

لم أعد أفكر في حرارة الطقس، ولا في فقري.

نسيت حياتي. رأيت السماء زرقاء فوق رأسي، والحديقة على يميني، الشارع على يساري. كل هذا كان ممتدا وشاسعا من حولي.

_ آه ،نعم... سيدي.

نعم ،لقد قلت نعم. لو تعلمون كم يصعب عليَّ أن أقول نعم. فلم يحدث لي أبدا من قبل أن قلت نعم. لا أعرف كيف أقول نعم. يبدو لي أن نعم، هي الحرية، السعادة.

يقيم هذا الرجل الغريب في الدور السفلي. ربما لأنه عاش حياته دائما في الطوابق السفلية للمباني، أو بسبب شعور قاتم يسكنه، غير أنه بالنسبة لي أشعر أنني لو كنت غنيا، لن أستطيع الإقامة في دور سفلي.

وهو يقف عن العتبة، لم يبحث الرجل عن المفاتيح بل ضغط على زر الجرس. فتحت الباب خادمة، صبية ساذجة، لكن يبدو

أنها من النوع العنيد.

_ تفضل بالدخول ،يا صديقي قال وهو يشير بيده إلى غرفة الانتظار.

دخلت، لكن دون أن امسح حذائي جيدا بسبب النعلين اللتين سيلتصقان بالسجادة. وبينما استعد لنزع قبعتي قال لي الرجل:

_ تصرف كما لو كنت في بيتك، لا تتحرج.

يمكنني أن أقول أن هذه الإشارة منه، قد أهانتني، لأنه من خلالها لا يستهدف إلا شخصا من نوعي، ولكن ما فائدتها؟ هناك، تصرفات عديدة

تشعرني بالضيق لكن لا بد لي من التجاوز.

ورغم ذلك، نزعت القبعة. تقدمت خطوتين لمحت دمية حيوان محشوة بالقش على الأريكة.

تركني الرجل عند البهو واختفى ليعود بعد لحظات.

_ تعال... لندخل غرفة الأكل. لقد طلبت من الخادمة أن تخصص لك صحنا.

تبعته

_ اجلس... أنت هنا في بيتك...

حدق الغريب في يديَّ، ثم أضاف :

_ لا بد، أنك تتساءل، يا صديقي العزيز ، من أكون. سأعلمك بذلك. اسمي بودييهمارتال. أحب من صفعته الحياة بقسوة. لقد حدست أن خلف مظهرك الخجول، تكمن روح طيبة. ولهذا السبب أصررت على أن أتعرف إليك، أن أقدم يد المساعدة لك، وأشجعك. ولا يجب أن يُشعرك هذا بالذل ويقلل من أنفتك ، فعليك أن تعتبرني في مقام أبيك. اعتبرني صديقا لك. تعودت أن لا أتراجع كلما أتيحت لي فرصة مد المساعدة و التخفيف من شقاء أحدهم، وأنت، أنت تستحق من يعتني بك.

كنت أصغي لما يقوله وكأنه الشخص المثالي الذي طالما بحثت عنه. كنت أصغي لكلماته من دون أن أحاول فهمها خشية أن تكون هناك كلمة لا تعجبني. لكن انصب اهتمامي على عبارات من نوع :صديقي العزيز، مد المساعدة ، الأنفة. لم أصدق أن الصديق الذي قضيت طول عمري أبحث عنه، هو هنا، قدامي. ورغم ذلك شعرت، أنني قليل الاستعداد للتحادث

معه.

_ لا تعتقد يا صديقي العزيز، أن قلبي قاس. أحاول قدر المستطاع أن أجعل من الحياة أقل قسوة مع البؤساء. فأنا لا أجيد فعل شيء آخر سوى الانحناء، لمساعدة البؤساء المتواضعين.

هدهدتني هذه الكلمات. واعتقدت لوهلة أن الكرسي الذي أجلس عليه بلا سيقان، وكعب حذائي غير مستقر على أرضية الغرفة، وأنني أحيا في حلم. هكذا شعرت أنني انطلق في حياة جديدة. أصبح عندي صديق. جاءني، بكل هباته، بكل قلبه الرحيم.

_ آه لو تعلم، يا سيدي كم يجعلني كل ما تقوله سعيدا.

_ نعم ،ذلك ما أفكر فيه... لتتناول الطعام الآن...ثم سوف أزورك في غرفتك الصغيرة يوم الأحد... والمؤكد؛ أنها غرفة صغيرة في الطابق السادس كما أتخيلها، أليس كذلك؟

_ نعم، سيدي.

_ لو تعلم كم صرت أعرفك... أني أرى كل حياتك الآن. تغادر فراشك حين تستيقظ من النوم...تقوم بجولة صغيرة... تحب الحيوانات... تذهب لتناول الغداء... تتسكع... تتناول عشاءك،

تذهب للنوم... وحدك... وحدك تماما. لا أحد يضايقك... لكن من أين تعيش؟

_ من منحتي...

_ آه! هي منحة قليلة إذا. أنت سعيد... أنت حكيم... تعجبني.

لن أنسى ما حييت هذا الغداء. حلَّت ثقة كبيرة بيني ولين السيد

بودييهمارتال، لم يكن هناك موجب أن اتخذ حذري منه.

أنه يوم الأحد ، والسيد بوديه مارتال سوف يأتي عند الساعة الرابعة حين تنخفض حرارة الطقس قليلا.

قضيت كامل الصباح في الاستعدادات. اشتريت خمرا،علبة بسكويت، وعصير ليمون. وضبت غرفتي وصارت الآن أوسع من قبل. فتحت النافذة، وجلست على حافة السرير في المكان الذي فيه ثقب كبير حيث غطاء القدمين. بقيت انتظر. وبما أنه لا يمكنني تحريك الستارة كانت الغرفة تغرق في الضوء المتدفق من الخارج.

كنت في حالة من الرضى مثل تلك التي يشعر بها المرء بعد إنجاز عدة أشغال.

أجَّات تنظيف القدحين إلى حين يأتي السيد بودييهمارتال لأجد ما اهتم به حين يدخل الغرفة.

وفجأة، سمعت وقع خطى على الدرج.

حتما هو من يصعد الدرج، قمت، أخذت القدحين وشرعت في تنظيفهما حتى إذا ما طرق الباب فتحته له ويداي مبللتان.

سمعته عند العتبة. ورغم أنني شرحت له كيف يصل إلى غرفتي، غير أنه قصد الجهة المقابلة، حيث عائلة لوكوان. ولكم تمنيت أن يرى جاري السيد بودييهمارتال يدخل غرفتي.

هناك من يطرق الباب. فتحت.

أنه هو. ورغم أنه يوم الأحد، لكنه ومن أجل رؤيتي، لبس ثيابا أنيقة.

ومن المؤكد أنه تعمد فعل ذلك احتراما لي. دخل، وهو ينزع قبعته.

_ مرحبا.. تفضل.. اجلس... أنا بصدد تنظيف الأقداح

ومددت له أفضل كرسي عندي.

_ أوه ! يا صديقي... لا تنشغل بي سأجلس حيثما كان.

جلس على السرير في الموضع الذي كنت فيه.

_ لديك غرفة جيدة، مُهوَّأة، نظيفة... لكنها عالية جدا.

_ هل تراها كذلك...

_ من النادر أن تعثر على غرفة مثل هذه.

لم يرق لي إعجابه بغرفتي المتواضعة. آملت ،أنه بعد رؤيته لغرفتي سوف يمنحني غرفة واسعة، مريحة في بيته. الآن، أدركت أن ذلك مستحيل.

_ هل تعد أكلك وحدك...

_ أوه! لا.

_ لا تفعل ذلك؟

_ لا، أتناول طعامي في مطعم!

_ تأكل في مطعم؟

_ نعم، سيدي.

_ أليس ذلك مُكلفا لك؟

_ أجريت اتفاقية مع صاحبة المطعم.

_ آه! هذا أمر آخر... من هو في وضعية مثلك لا بد أن يحسن التصرف.

_ أعلم ذلك جيدا، يا سيدي.

عم الصمت. وهو يطل من النافذة، عمد السيد بوديهمارتال مرتال إلى تفحص الحشية بقبضة يده. ومن حين لآخر، يدق أرضية الغرفة بكعب حذائه. ويلتفت يحدق في كل شيء هنا وهناك.

وحين شرعت في البحث عن منديل، قال لي :

_ لا تمسح الكأسين. أحب أن أشرب في كأس مغسول بالماء. غرفتك جيدة جدا. هل الماء قريب من هنا.

_ نعم ،عند السطيحة.

_ ممتاز... لم استطع في ذلك اليوم أن أحدثك كما ينبغي. فبالكاد عرفتك. والآن ،أريد أن أقول كم اجد بساطتك، وتواضعك كبيرين.

أذهلتني كلماته التي كانت كلها حقيقية.

نظرت بعطف للسيد بوديه. وشعرت أن ما يفرق بيننا هو بصدد الإمّحاء.

_ هل ترغب في احتساء القليل من الخمر، يا سيدي؟

_ إن شئت، يا ابني.

ابني. لقد قال ابني. الآن امّحى كل حزني. سكبت الخمر في القدح بيد مرتعشة.وحين أراد الوقوف لاستلام القدح، قلت:

_ لا، ابق في مكانك... وحملت الكأس إليه محاذرا من عدم اندلاقها.

شرب وهو يحني رأسه إلى الأمام،كما لو أنه في حانة.

بدا لي ذلك غير لائق. كان عليه أن لا يشعرني أنني ملأت الكأس كثيرا، فإنما فعلت ذلك لأن كلماته الطيبة أربكتني. خشية من أن يبتل كان بإمكانه

أن يشرب كما يفعل في بيته.

_ أنت حساس جدا، يا صديقي.

اعتقدت لوهلة أنه قرأ ما يجول بخاطري.

_ أحب الناس الذين مثلك. يدهشني البؤس الإنساني. احك لي حياتك. وأن شئت أن تساررني. افعل ذلك.

احكي حياتي! هل من الممكن أن يحكي المرء حياته لصديق؟ هل من الممكن أن يحكي شخص ما حياته من دون أن يُجملها أو يُقبِّحها، دون أن يكذب؟ وفيما يخص المساررة، هل يمكن أن تأتي تحت الطلب هكذا؟ أن أتحدث عن حياتي، عني لشخص بالكاد أعرفه. هذا غير ممكن.

متظاهرا بالكثير من الانتباه، كان السيد بوديبه ينتظر أن أتحدث.

قلت :متظاهرا ،لأنه وهو يُثبِّت نظراته فيَّ يلفت بصره من حين لآخر نحو شيء من أشياء الغرفة.

_ تغتسل في هذه الطست.

_ نعم سيدي.

_ هذا ليس مريحا... هيا ، احك لي حياتك، وساررني. فأنا صديق ،أخ...

_ أخ؟

_ لقد عانيت بدوري من الفقر.

_ أنت عانيت من الفقر؟

_ نعم.

شعرت، أنه أراد أن يقول عليك أن ترضى بما أنت عليه الآن.

وشعرت في نفس الوقت أن قيمته عندي قلَّت شيئا ما.

_ هل ترغب في المزيد من الخمر يا سيدي؟ سألت في انتظار رفض مهذب.

كنت مخطئا. لقد طلب السيد بوديبه المزيد.

هل لاحظتم ،كيف نخطيء تقدير الناس. نكون أحيانا متأكدين من أنهم سيردون بلا ولكن يقولون العكس. غير أن هذا لا يجعلنا نغير في موقفنا. لم يقل السيد بوديبه لأسباب صغيرة تافهة، أجهلها بدوري، لكنه في حقيقته وفي داخليته كان يرفض الخمر الذي أهبه إياها.

سكبت السائل بهدوء في الكأس هذه المرة، حتى لا يخفض السيد بوديبه رأسه وهو يرتشفها.

_ هل ستحكي لي هذه الحياة؟ وهو يبحث عن مكان يضع فيه الكأس.

لو رأيتم كيف يبحث عن هذا المكان! لو كان يحبني فعلا، لو كان منجذبا نحوي فعلا ببعض المشاعر، ما كان عليه أن يبدو منشغلا بالبحث عن مكان حيث يضع الكأس. فبإمكانه أن يضعها ببساطة على الأرض.

_ إذا... هذه الحياة؟

_ أوه! سيدي، لا شيء فيها مهم.

قام من مكانه، اتجه نحوي وأخذ يداعب شعري.

غمرني فرح بلا حدود، رغم أنني كنت موزعا بين الرغبة في توقف هذا الفرح ، أو استمراره بلا نهاية.

أرغب في أن يتوقف، لأن هناك شيئا من التناقض في التدفق العاطفي بين الرجال، وأرغب في أن يستمر لأنه علامة صداقة عميقة.

ـ ابني الكبير ، ابني الكبير. قال وهو يبتعد عني.... مضطر أن أذهب الآن، صديقي العزيز...

ـ هل ستنصرف؟

وأنا الذي اعتقدت أننا سنبقى معا إلى الليل...!

ـ تعال ،لتناول الغداء معي متى شئت. لا أجبرك. أنت حر. لا ألزمك بموعد محدد. احترم كثيرا حرية الآخرين.

آه ! لو فقط يعلم السيد بودييه، أنني لا أتعلق كثيرا بالحرية حين أكون وحدي.

التقط قبعته ولم ينتظر حتى يخرج ليضعها فوق رأسه. فهمت أنه اقام بمجهود في البداية ليكون مهذبا، والآن وقد نال منه التعب، هاهو يترك نفسه على سجيتها.

تصورت هول العزلة الذي سيلتهمني بمجرد ما يتخطى السيد بودييه عتبة الغرفة.

قمت أنا أيضا من مكاني.

ـ هل ستنصرف فعلا؟

ـ نعم، لا بد أن أعود إلى بيتي.

فقدت أعصابي.

ـ سيدي... سيدي... لا تذهب.

مذهولا ؛تراجع السيد بودييه إلى الوراء نحو الباب، الذي فتحه بحذر، تحت وطأة الدهشة.

_ لا ترحل ،سوف أكون وحدي جدا من دونك... لوتعلم كم أنني أتألم حين أكون وحدي... ابق... أرجوك... لقد كنت طيبا جدا معي...

ترك السيد بودييه مقبض الباب وقد عاوده الإطمئنان.

_ اهدأ يا ولدي... اهدأ... أنت تعلم جيدا أنه بإمكانك التعويل عليَّ.

فهمت أنه من الصعب جدا استبقاؤه. لا اعرف رعبا أشد من الإحساس بعدم القدرة على استبقاء شخص ما.

اقتربت منه في محاولة أخيرة وركعت ببلاهة كما يفعل أولئك الذين لا يقصدون الكنيسة وتمتمت :

_ طبعا، أنت لا تؤاخذني ولست مستاءا مني... لقد تصرفت بتلقائية... لعلك تفهمني ...بإمكانك الإعتماد عليَّ في كل شيء... وأنا على استعداد للتضحية بكل شيء... فقط لتبق قليلا سيدي.

ثم قمت، والسيد بودييه، الذي تراجع إلى الخلف أكثر قال لي وهو الآن في الممر:

_ هيا، يا صديقي تشجع. لن أنساك. أحبك كثيرا، إلى اللقاء، زرني في بيتي متى شئت...

وانصرف دون أن يسمع ما قلته له أنني مستعد للتضحية بكل شيء من أجله.

ها أنا ذا وحدي من جديد. جلست على السرير. مازال الوقت باكرا. كان هناك من يعزف على القيثارة في غرفة مجاورة، تتكرر نفس النغمة لأكثر من

مرة. أسراب من العصافير تحلق في السماء،تمر بسرعة كما لو أنها تتبع خطا مستقيما، عصافير سوداء مثلما تكون العصافير دائما بعد الزوال.

قمت. وضعت قبعتي. انتظرت قليلا ليبتعد السيد بودييه. فتحت الباب. كان الممر خال تماما. خرجت ،بقيت أتسكع لساعة متأخرة من الليل.

لن أنسى أبدا هذا اليوم الفائق الجمال، والذي كان من أتعس أيامي.

نمت متأخرا ، إذ بقيت أفكر في السيد بودييه. فأنا طيب جدا، لدرجة، أنني حين أكون بعيدا عن الناس لا أرى عيوبهم. يا لغبائي؛ لقد تخيلت أن السيد بودييه في فراشه هو بدوره يفكر فيَّ. نظرت إلى ساعتي. لأنني في تلك اللحظة ، قررت أن أزوره غدا لأقول أنه في الساعة الحادية عشر وعشر دقائق التقت أفكارنا.

عند الصباح بدت لي هذه الفكرة مثيرة للسخرية. لكن لم أعدل عن فكرة زيارتي، بما أنه مضت ثلاثة أيام لم نتقابل فيها معا. لقد ألحَّ عليَّ أن أزوره لتناول إفطار الغداء معه و يجب أن أمتثل لطيبته.

لبست أفضل ما عندي من ثياب. عادة ما أراني حين أكون في غرفتي متألقا. لكن ما أن أخرج إلى الشارع، وأمشي في الزحام بين الناس، يتنابني إحساس أنني أفقر الناس. وليس ذلك بسبب التباين في اللباس. فعادة ما أعبر لا مرئيا. ولكن أعتقد أن أغلبهم يعرف الحياة التي أعيشها ويردد"لقد نال ما يستحقه". ولعلني ،بالغت شيئا ما، ربما أنا متخوف أكثر من اللازم، بلا ثقة في شخصي. فلا أحد في نهاية الأمر يهمه أمري.

غادرت غرفتي عن الساعة الحادية عشر والنصف. وإن كنت عادة ما أخرج قبل هذا الوقت . فلأني أردت أن أصل لبيت السيد بودييه اليوم، غير

مغبر.

حرارة الطقس على أشدها. مرت شاحنة ترش الشارع بالماء وبللتني. كنت أمشي ببطء ،فرغم أن الزيارة كانت مبررة غير أنني كنت مترددا.

بلغت المبنى الذي يقيم به السيد بودييه عند منتصف النهار بالضبط. دخلت مباشرة. كان الرواق أقل برودة من يوم زيارتي الاولى، كل الأبواب مغلقة. ففي الصيف، لا تنفتح الأبواب.

لم يكن هناك مصعد، فصعدت الدرج.لم أتمسك بالدرابزين فقد كانت متعرقة بدورها. حين وصلت أمام الباب، نزعت قبعتي، ثم أعدتها مجددا فوق رأسي. كنت ألهث جراء تسلق الدرج.

ضغطت على زر الجرس وانتظرت.

_ هل السيد هنا؟ سألت الخادمة وقد وضعتُ يدا على الجدار.

تعمدت هذه الوقفة ،حين رأيت الخادمة فأنا لا احتمل الخدم. كنت أريد أن أظهر للخادمة أنني ورغم ثيابي الرثة؛ أعلى شأنا منها.

وردت:

_ من تقصد؟

أعرف أن ردها هذا، جاء أما لطبيعتها الشريرة أو للثأر فلقد فهمت القصد من وقفتي تلك.

أوشكت أن أفقد صبري الذي بالكاد كنت أعانيه.

_ سيدك ،قلت ذلك بشكل فظ.

غير ،أنني سرعان ما ندمت على ردة فعلي تلك. إذ تبين لي في الأخير، أنني

تحت رحمة هذه المرأة. فما الذي كنت سأفعله لو قالت لي "سيدي! ليس هنا !" تداركت الأمر بسرعة وأضفت:

_ تعرفينني جيدا... لقد جئت ذلك اليوم لتناول الغداء هنا.

ورغم أنني غمغمت بتواضع فيه شيء من الخوف، فلن أذكرها بسوء أمام السيد بودييه.

_ نعم ،أنه هنا، ادخل...

نزعت القبعة، رغم أنه لم يكن من واجبي أن أفعل ذلك أمام الخادمة. طبعا ،سوف تعتقد أنني فعلت ذلك من أجلها.

_ ما اسمك، لأعلمه بك؟

_ قولي له السيد الذي تناول معك إفطار الغداء في يوم سابق.

_ ولكن... أي منهم... كثيرون يأتون هنا.

لا بد ،أن أقول اسمي. سوف تسخر مني ،سوف تضحك. لا يهم، ففي آخر الأمر، اسمي هو اسمي. لن أتردد في الإفصاح عنه.

_ السيد باطون.

_ باطون.

_ نعم.

_ حسنا ،انتظر.

جلست على أحد كراسي البهو، كرسي من النوع الذي يضعون فوقه القبعات أو العلب ولكنه من النوع الذي يجلس عليه أمثالي.

انفتح باب ،وظهر السيد بودييه في بذلة البيت.قفزت واقفا.

مد لي يديه يصافحني.

_ أنت... تسعدني رؤيتك مجددا. تعال... ادخل... سأقدمك إلى أحد الأصدقاء... شخص من نوعك... ادخل... ادخل...

لم يكن هناك مجال للتفكير، كنت منذهلا، سعيدا كما في الأحلام.

رأيت، هنا ،على الأريكة، أحد الفقراء، فقيرا مثلي. لم أكن أحتاج إلى النظر إليهم طويلا. إذ، أنني سرعان ما أتعرف إليهم. فعلا ، كان هناك على الأريكة أحد الفقراء.

_ ولكن... ادخل... ياصديقي.

لم أرد. فهمت كل شيء الآن. فالسيد بوديبه لا يحبني أنا. هو يحب الفقراء.

_ ولكن ادخل ،باطون... مالك؟

_ لا... لا... سانصرف... أنني مريض...

تراجعت إلى الخلف. تبعني السيد بوديبة. لم يكن بإمكانه أن يقترب مني كثيرا. فلا يمكن الاقتراب كثيرا من الناس المزاجيين الذين سرعان ما يغيرون آرائهم.

_ ولكن ابق يا عزيزي... ابق... أنت هنا في بيتك... أنت صديقي.

واصلت في التراجع إلى الخلف، ثم فتحت الباب.

_ سوف أعود بعد قليل، سيدي... أشعر بشيء من الألم... أنني مريض... يجب أن انصرف.

خرجت، دون أن أغلق الباب خلفي. كان بمستطاعي أن أغلقه لكن لم أجد الشجاعة لذلك. فطالما، هو مفتوح يظل شيء ما مفتوحا بيني وبين

السيد بوديبه. يمكنه أن يتبعني ،يترجاني أن أعود، لن أعرف وقتها، ماذا سأفعل.

ولئن تركت الباب مفتوحا، فذلك كي يغلقه هو، كي ينهي إلى الأبد صداقتنا، كي أجد في عزلتي على الأقل مبررا يجعلني أتألم من عدم فهم الآخرين لي.

ظل السيد بوديبه واقفا عند باب شقته يلاحقني ببصره، يبدو أن الممر هو المكان الذي من الممكن أن ينقذ كل شيء؛ أما الدرج فهي الهوة. انحنى السيد بودية ،ناداني مجددا.

_ هيا... باطون... تعال... مالك؟

كنت أواصل مشيتي بثاقل. حين صرت في الرواق الخارجي، توقفت. هل لأن ألمي لم يكن حادا بالشكل الذي تصورته، تفاجأت ببعض العيون تلاحقني، كانوا يتابعون ما يحدث في الدور السفلي.

انغلق الباب. انتهى كل شيء.

بدا لي على ضوء النهار في الخارج أن كل ما حدث منذ حين كان في عداد الماضي المفقود. لم أبك. لا نبكي مباشرة في اللحظة المناسبة. كانت أعصابي مشدودة ،إلى درجة أنه ورغم أنني ليس من عادتي أن ابتسم، فلقد كان وجهي متقلصا كما لو كنت ابتسم.

مرت الأيام.

كان يمكن أن أنسى تلك الحكاية المريرة، لو لم احتفظ في داخلي بشعور أن السيد بوديبه كان يعلم لماذا انصرفت. كان يعلم أنه شعور ساذج بالغيرة هو الذي دفع بي للفرار، وأنه لو كان في مكان ذلك الفقير الجالس عنده وقتها،

وجدت شخصا ثريا؛لكنت بقيت بالتأكيد . لقد أدرك حتما كل الأفكار الحقيرة التي جالت بذهني وقتها. نعم دونما أدنى شك لقد أدركها كلها، بما أنني لو كنت في مكانه لأدركتها بدوري.

1

طلب مني صاحب المحل، إخلاء الغرفة

يبدو أن بقية المستأجرين اشتكوا مني ولم يعجبهم أنني عاطل عن العمل. رغم، أنني لا أؤذي أحدا. أنزل الدرج بهدوء،وطيبتي كبيرة جدا. وحين تحمل العجوز المقيمة بالطابق الثالث كيسا ثقيلة أساعدها في ذلك. أمسح ساقيَّ ثلاث مرات متتالية قبل صعود الدرج.

أدقق جيدا في القواعد التي لا بد من الالتزام بها في المبنى والمعلقة على باب غرفة القائمة على أعمال المكان. لا أبصق في الدرج كما يفعل السيد لوكوان. وفي الليل، حين أعود لا ألقي بأعواد الكبريت التي أشعلها لأهتدي في الظلمة على الأرض. لم أتأخر يوما عن دفع ثمن الكراء، نعم، أنني أدفعه دونما تأخير. اعترف أنني لم أعط يوما بقشيشا لخادمة المبنى، لكن، لم يحدث أنني ضايقتها. مرات قليلة أعود بعد السادسة، فتفتح لي الباب وهو أمر طبيعي.

أقيم في الطابق السادس، بعيدا عن بقية الشقق، لا أغني، لا ابتسم؛ السبب الوحيد هو أنني عاطل عن العمل.

لقد كنت المخبول الذي تمنى كل واحد مقيم في مبنى العمال هذا أن يكونه. كنت أمتنع عن أكل اللحم، عن ارتياد السينما، عن لبس الحرير، لأكون حرا. لقد كنت دون أن أعرف أو أتقصد، ذلك الشخص الذي يذكر الآخرين بوضعيتهم البائسة.

لم يغفروا لي أنني حر ولا أشتكي من البؤس.

يا للغرابة؛ كم أن كل شيء يتغير دونك.

2

لم أتمكن من العثور على غرفة أخرى :فبعت كل الأثاث الذي كنت أملكه.

إنها العاشرة ليلا. وأنا وحدي في غرفة بأحد النزل الوضيعة.

آه ! يا لها من بهجة، أنني تخلصت من جيراني، وانصرفت، تركت مونت روج.

أجول ببصري في هذه الغرفة الضيقة الفارغة من كل شيء، هذه الغرفة التي سأعيش فيها الآن. أفتح الخزانة. لا شيء فيها. سوى أوراق جراء تغطي رفوفها.

أفتح النافذة. الهواء ساكن في الخارج، لا يدخل الغرفة. ظل ما يتحرك جيئة وذهابا خلف ستارة في الجهة المقابلة. يصلني أزيز أصوات عجلات الترامواي.

أعود لوسط الغرفة. هاهي الشمعة الآن تشتعل بشكل جيد والشعلة الثابتة لا ترسل دخانا.

منديل يغطى دورق ماء. كأس. المشمع الموجود قدام حوض الاستحمام، تم تزيينه بأقدام مبللة. الاسلاك النابضة للسرير تلتمع. تصلني من الدرج أصوات جهورية لا أعرفها.

جص الحيطان أبيض اللون يشبه ذيل غطاء. يتحرك غريب في الغرفة الملاصقة لغرفتي.

بودي أن اقتنع أنني سعيد، وأن أحدهم سوف يحبني ذات يوم ما.

غير أنني منذ زمن طويل اعتمد على المستقبل!

ثم، رقدت على جنبي الأيمن، بسبب القلب.

استلقي ببطء شديد بسبب الأغطية المتيبسة والباردة. أشعر ان جلد قدميَّ أحرش.

أغلقت الباب طبعا. لكن أحس أنه مفتوح، ويمكن لأي شخص أن يدخل. من حسن الحظ، أنني تركت المفتاح داخل القفل :هكذا لن يستطيع أي شخص آخر ادخال مفتاحه الثاني.

حاولت النوم، غير أني أفكر في ملابسي، المطوية في الحقيبة خشية أن تندعك.

صار فراشي دافئا، لا أحرك قدمي كي لا أخدش الأغطية فذلك يجعلني أشعر بقشعريرة.

أعدِّل جيدا وضع أذني على الوسادة كي لا تنطوي.

لقد أزعجني كثيرا هذا الانتقال الفجئي من غرفتي وجعلني عصبي المزاج. أرغب في التحرك أشعر كما لو أنني مقيد : يجب أن أنام.

عيناي المفتوحتان، لا تريان أي شيء.

أفكر في الموت والسماء، لأنني كلما فكرت في الموت فكرت أيضا في النجوم.

أشعر أني ضئيل جدا قبالة العدم ولذلك سرعان ما أتخلى عن هذه

الأفكار. جسدي الساخن،الذي يحيا، يطمئنني. أتحسس جلدي بحب. استمع لدقات قلبي، وأحافظ جيدا على عادة وضع يدي على نهدي الأيسر ذلك أنني لا أخشى من شيء ما أكثر من خشيتي من هذه الدقات المتتالية، الرتيبة والتي لا أتحكم فيها والتي يمكن أن تتوقف في أي لحظة. أحرك مفاصلي، وأتنفس جيدا حين أحس أنها لا تؤلمني.

آه ! العزلة ،أيتها الشيء الجميل والحزين! كم تكون حزينة أن أُجبرنا عليها من سنوات عديدة.

بعض الناس الأقوياء ليسوا وحيدين في العزلة، لكن أنا، الضعيف، فإنني وحيد عندما أكون بلا أصدقاء.

إمانويل بوف

أصدقائي

«كم ترهقني الوحدة. أحب أن يكون عندي صديق، صديق حقيقي، أو حبيبة أبثّها آلامي. حين أتسكع كامل اليوم، في صمت، عند المساء في غرفتي، أشعر إنني مجهد. سأتسم كل ما أملكه: مال منحتي، سريري من أجل عاطفة قليلة. سأكون ناعما جدا مع الشخص الذي يمنحني صداقته بكل ثقة. لن أعارضه إطلاقا. ستكون كلّ رغباته هي نفس رغباتي. سوف أتبعه حيث يمضي مثل كلب. ليس عليه إلا أن يقول طرفة لأنفجر ضاحكا؛ وسوف أبكي حين أراه حزينا».

البحث عن صديق، هذا هو الشغل الشاغل لفيكتور باطون، لا يفعل أي شيء في حياته سوى البحث عن صديق له، يخرج من غرفته كل صباح وهو يُمنّي نفسه بالعثور عن صديق.... فهل سيجد هذا الصديق؟ يتناولُ إيمانويل بوف مسألة الوحدة والجراحِ التي تمزّق الرّوح الإنسانية بأسلوبٍ روائيٍّ فريد، جعل اسمهُ يُدوّن بحروف من ذهبٍ ضمن علامات الأدبِ الفرنسي في القرن العشرين.

ISBN 9786039143734
9 786039 143734
WWW.PAGE-7.COM

7